صفوانة[١] وأصل الصّفا خلوص الشّيء من الشّوب ومنه الصّفا للحجارة الصّافية[٢] .

عليه تراب : يعنى على الصّفوان تراب[٣] .

فأصابه : الضّمير عائدٌ على الصّفوان ويحتمل أن يعود على التّراب[٤] .

وابل : هو المطر الشّديد العظيم كما قال امرؤ القيس :

ساعةً ثمّ انتحاها وابلٌ ساقط الأكنافِ واهٍ منهمر

يقال منه وبلت السّماء فهى تَبِل وبلاً وقد وبلت الأرض فهى توبل[٥] قال الأخفش : ومنه قوله تعالى : أخذناه أخذًا وبيلاً . أى شديدًا . وضربٌ وبيل وعذابٌ وبيل أى شديد[٦] وقال النّضر : أوّل ما يكون المطر رشًّا ثمّ طسًّا ثمّ طلاًّ ورذاذًا ثمّ نضحًا وهو قطرتين قطرتين ثمّ هطلاً وتهتانًا ثمّ وابلاً وجودا[٧] .

فتركه صلدًا : الصّلد الأملس من الحجارة . قال الكسائىّ : صلِد يَصْلَد صَلَدًا بتحريك اللّام فهو صَلْد بالإسكان ، وهو كلّ ما لا ينبت شيئًا ، ومنه جبينٌ أصلد . قال النّقّاش : الأصلد الأجرد بلغة هذيل[٨] وهو لا يُنْبت ومنه قيل رأسٌ صَلْدٌ لا يُنْبِتُ شَعْرًا[٩] .

لا يقدرون على شيءٍ ممّا كسبوا : جمع الضّمير باعتبار معنى الّذى[١٠] ومعنى لا يقدرون يعنى المرائى والكافر والمانّ : على شيءٍ ، أى على الانتفاع بثواب شيءٍ من إنفاقهم وهو كسبهم عند حاجتهم إليه ، إذ كان لغير الله ، فعبّر عن النّفقة بالكسب ، لأنّهم قصدوا بها الكسب[١١] ويكفى من ذكر العمل لغير وجه الله حديث الثّلاثة الّذين هم أوّل النّاس يقضى عليه يوم القيامة وهو المستشهد والعالم والجواد[١٢] .

من البيّن أنّ الآية الكريمة تتحدّث كسابقتها عن الصّدقة ومن الزّاوية ذاتها ولكن فى

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٣٠٢ (٢) مفردات الرّاغب ص ٢٨٣ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٤٤ (٤) البحر المحيط ٢ / ٣٠٩ .
(٥) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٤٤ وانظر تفسير القرطبىّ ١١٢١ .
(٦) تفسير القرطبىّ ١١٢١ (٧) البحر المحيط ٢ / ٣٠٢ .
(٨) تفسير القرطبىّ ١١٢١ وانظر البحر المحيط ٢ / ٣٠٢ .
(٩) مفردات الرّاغب ص ٢٨٥ (١٠) الجلالين وانظر البحر المحيط ٢ / ٣١٠ .
(١١) تفسير القرطبىّ ١١٢١ (١٢) البحر المحيط ٢ / ٣١٠ .

طريقةٍ مغايرة وتعتبر تطوّرًا عن الطّريقة السّابقة بل عن الطريقتين السّابقتين ، بمعنى أنّ المعنى الواحد تتحدّث عنه آياتٌ كريماتٌ ثلاث من جوانب ثلاثة وهذا المعنى هو المنّ والأذى اللّذان ينبغى للمتصدّق أن يتحاشاهما ويبتعد عنهما . إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ الثّواب الجزيل للمنفق ماله فى سبيل الله تعالى حينما لا يُتْبِعُ ما أنفق منًّا ولا أذىً . ويلى هذا الأسلوب التّقريريّ مقارنة فى الآية الكريمة التّالية بين من يقول للسّائل قولاً معروفًا ويغفر له إلحاحه فى السّؤل دون أن يتصدّق عليه وبين من يتصدّق على السّائل ويؤذيه بلسانه وبغير لسانه ويدخل المنّ فى الأذى بطبيعة الحال لأنّ من لا يتورّع عن الإيذاء لا يتورّع عن المنّ . وتفضّل الآية الكريمة الحالة الأولى وفى ذلك نهىٌ غير مباشرٍ عن المنّ وعن الأذى . وفى هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها نهىٌ مباشرٌ عن المنّ والأذى . قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى ﴾ والمعنى يا أيّها الّذين صدّقوا الله ورسوله لا تبطلوا ثواب صدقاتكم ولا تفسدوا أجورها بالمنّ والأذى . وإنّما كان الحديث عن الصّدقات من بين سائر النّفقات لكونها أكثر عرضةً للمنّ والأذى من بين سائر النّفقات . ومن البيّن أنّ الآيات الكريمات الثّلاث بعد آية المثل الّذى نزّل النّفقة فى سبيل الله تعالى منزلة الحبّة الّتى تحوّلت سبعمائة حبّة ، إنّما تتحدّث عمّا يصحّ أن يبطل النّفقات بعامّة ، الصّدقات بخاصّة ، ويأتيها بالفساد من خلفها ، أعنى المنّ والأذى . والمعروف أنّ آية المثل عُنِيت عنايةً بالغةً بما بين يدى النّفقة وما يلابسها أعنى أن تكون نفقة المال الحلال الطّيّب مصحوبةً بالنّيّة الحسنة بكون النّفقة إنّما هى فى سبيل الله تعالى وحده لا شريك له . قال تعالى : ﴿ مثل الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبّة ﴾ .

أما وقد نال ما خَلْف الإنفاق حظّه فقد بقى أن ينال ما بين يديه هو الآخر حظّه بعد أن كانت الإشارة إليه عابرة . قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالّذى ينفق ماله رئاء النّاس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ والمعنى : يا أيّها الّذين آمنوا لا تبطلوا أجور صدقاتكم بالمنّ والأذى إبطالاً كإبطال الّذى ينفق ماله رئاء النّاس ، فلا ينفق ماله ابتغاء وجه ربّه الأعلى بل مرائيًا للنّاس ، ولا يؤمن بالله تعالى معبودًا واحدًا

لا شريك له ولا يؤمن باليوم الآخر وما يشتمل عليه من بعثٍ فحسابٍ فجزاء ، ثوابٍ أو عقاب . وبهذا يتبيّن جمال التّحوّل ممّا هو من متعلّقات ما يعقب الصّدقات إلى ما هو من متعلقّات ما يسبقها ، ويتجلّى لطيف الانتقال من الآخر إلى الأول ، أو لطيف العودة إلى الأوّل بعد أن كانت الإشارة إليه عابرة والحديث عنه موجزًا ، وذلك فى القول : ﴿ مثل الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ﴾ .

وإذا كان ضرب المثل السّابق بالحبّة بقصد التّنبيه إلى النّماء والبركة والحثّ على الإنفاق فى سبيل الله تعالى فإنّ ضرب المثل اللاّحق فى هذه الآية الكريمة بالصّفوان بقصد التّنبيه إلى الخسران وزوال البركة والحثّ على وجوب أخذ الحذر من الرّياء . قال تعالى : ﴿ كالّذى ينفق ماله رآء النّاس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوانٍ عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صلدًا لا يقدرون على شيءٍ ممّا كسبوا ﴾ ومن البيّن أنّ المثل هنا يحقّق كسابقة فائدةً من أهمّ فوائد ضرب الأمثال وهى تقريب المعانى النّائيّة وجعل المعنوىّ المتخيّل فى حكم المحسوس المتحقّق . إنّ كلّ واحدٍ منّا رأى حجرًا ورأى صخرةً ملساء ورأى صفوانًا عليه تراب قليل زال بفعل الماء المنهمر . إنّ هذه الأمور المحسوسة وسيلةٌ لتقريب المعانى النّائية المتعلّقة بالمرائى وما يقدّم من نفقات وما يعلن من صدقات لظاهرها معنًى ولباطنها معنًى آخر .

إنّ الآية الكريمة تنزّل المرائى الّذى يتصدّق ابتغاء حسن الذّكر والثّناء العاطر وليس ابتغاء وجه الله تعالى ومرضاته منزلة الصّفوان . وقد عرفنا أنّ الأصل اللّغوىّ يفيد صفاء هذا النّوع من الحجارة بسبب طول عمره ويعنى خلوصه من كلّ شائبة . فإذا عرفنا أنّ الصّفوان هو الحجر الكبير الأملس ، استطعنا أن نفهم أنّ من متعلّقاته صفاء لونه وخلوصه من أىّ شائبة . وبهذا يصحّ لهذا النّوع من الحجارة دليلان خارجيّان على طول العمر وهو صفاء اللّون ونعومة الملمس . ويصحّ أن يضاف إلى هذين الدّليلين الدّاخليّين على طول العمر دليلٌ آخر داخلىّ وهو قسوة هذا النّوع من الحجارة وصلابته . وإنّ كلاً من نعومة الملمس خارجيًّا وصلابة الحجر داخليًّا قوّةٌ تضاف إلى قوّة دلالة المثل وبلاغة أدائه .

إنّ الصّفوان حينما يكون صُلْب الدّاخل ناعم الخارج بطبعه وحينما ينبّهُ إلى أنّ على هذا

الصّفوان تراب ، أيّ تراب ، فذلك معناه أنّ هذا التّراب مهما كان نوعه ، فإنّه قليل لا يغنى فتيلاً ولا يسمن من جوع ولا يصلح بأيّ حالٍ من الأحوال أن يكون من جنس تلك التّربة الجيّدة النّوع ، البعيدة الغور ، الّتى ينمو فيها النّبت ويزكو .

وهذا التّراب القليل على الحجر الكبير الأملس إنّما يخدع الغفل من التّجارب الغرّ ، لأنّه يظنّ أنّ هذا التّراب الّذى أمامه امتدادٌ للتّربة الصّالحة تحته موصولٌ بها .

وما دمنا مع عناصر هذا المثل الحسّىّ ، ولمّا كان القصد تقرير النّظرة القاصرة الّتى تقف عند ظاهر التّراب ولا تتخطّاه لعجز النّظر ذاته عن اختراق أبسط طبقات التّراب فكيف بسبر غوره وتبيّن حقيقة عمقه ، فإنّ الآية الكريمة تبيّن السّبب الخارج عن ذات الإنسان النّاظر وتقرّر الحقيقة الّتى تمّ بموجبها معرفة حقيقة ذلك التّراب غير الموصول بالتّربة الجيّدة الصّالحة لنماء النبات وزكائه . وهذا السّبب الخارجىّ هو المطر العظيم ، الكثير القطر ، الدّائم التّتابع ، الشّديد الوقع . وما دمنا بصدد ترابٍ قليلٍ على صخرةٍ صُلبة ناعمة ، وما دمنا أمام هذا الوابل النّازل على ذلك التّراب الّذى تلك صفته وذلك حاله ، فمن الطّبيعىّ أن يقلّ بقاؤه على الصّفوان ، وتضعف قوّته على التّماسك ، وتتلاشى قدرته على المقاومة ، وها هو ذا يزلّ من على الصّخرة الصّمّاء النّاعمة ، ويغدو أثرًا بعد عين ، ويبدو لكلّ ذى عينين حقيقة القاعدة الّتى كان التّراب قائمًا عليها موصولاً بها ، ويظهر جليًّا الصّفوان وقد غدا بسبب نعومته أصلاً وبسبب انهمار الماء عليه بعد ذلك انهمارًا لم يترك عليه شيئًا ولم يبق لذلك التّراب أثرا ، وقد غدا أكثر بريقًا وأشدّ لمعانًا : « فتركه صلدا» وانظر إلى جملة « فأصابه » الّتى يفهم منها تمكّن الوابل من ذلك الصّفوان وإصابته مقتله . وانظر إلى جملة : « فتركه » الّتى توحى بضعف المتروك وقوّة التّارك بسكون المتروك وموته ، وحركة التّارك وشدّة بأسه . وحينما يكون القصد من إصابة الوابل التّراب كشف زيف كلٍّ من التّراب الخادع للعين والصّفوان الخادع للّب ، فكأنّ نتيجة الإصابة والتّرك ، وقد تفاعلنا مع الأحداث ، وتعاطفنا مع نبل الهدف وسلامة الفعل ، شعورنا بالرّضا وقد جاء الحقّ وزهق الباطل .

وهكذا يتبيّن أنّ الوابل من السّماء قد كشف غطاء التّراب وأزال غشّه وخداعه ،

وأبان عن حقيقة ما استتر وراء التّراب وتوارى عن الأعين من صخرةٍ صمّاء لا أمل فى انبجاس مائها ، ملساء لا مطمع لأحدٍ فى الاستمساك بعراها وهى الّتى لا عرى لها ، أو الاستقرار عليها وهى الّتى يتعذّر الارتقاء عليها فكيف بالبقاء فضلاً عن الاستقرار أو الثّبات . إنّ التّراب الّذى أراد أن يظهر بمظهر الحقّ فى هيئة التّربة الصّالحة الجيّدة قد غدا هباءً منثورا وبالتّالى ظهر الباطل الّذى تحته على حقيقته وبدا عاريًا لكلّ ذى عينين .

أما وقد عرفنا أبعاد هذا المثل من الوجهة الحسّيّة ، ونحن على ذُكْرٍ بدور المثل فى تقريب المعانى البعيدة وإظهار المتخيّل فى صورة المتحقّق ، فما هى أجزاء الصّورة المعنويّة الّتى تقابل أجزاء هذا المثل الحسّىّ ؟ وما هى المعانى البعيدة الّتى يقرّبها والمرامى القصيّة الّتى يدنيها ؟ .

والحقيقة أنّ ثمّة بعض الأمور الّتى نود أن نتبيّنها ابتداءً وهى على النّحو التّالى :

١ ــ تجمع الآية الكريمة فى صدرها بين الصّدقة وبين الإنفاق ، أو بعبارةٍ أخرى تتحوّل من الحديث عن الصّدقة إلى الحديث عن الإنفاق ، وقد عرفنا أنّ الحديث كان ابتداءً عن الإنفاق فى سبيل الله تعالى ، ثمّ تحوّل إلى الصّدقة ، وها هو ذا يعود إلى الإنفاق . وبذلك يبدأ الحديث بالإنفاق وبعد الحديث عن الصّدقة يعود إلى الإنفاق .

٢ ــ يجمع صدر الآية الكريمة فى نسق بين النّهى المباشر عن إبطال الصّدقة بالمنّ والأذى وبين النّهى غير المباشر عن إبطال الإنفاق بالمراءاة . إذ المعنى : يا أيّها الّذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى إبطالاً كإبطال الّذى ينفق ماله رئاء النّاس .

٣ ــ ذلك المرائى الّذى أبطل إنفاقه بسبب الرّياء والسّمعة وحسن الذّكر هو المنافق ، لأنّ الرّياء من أهمّ دعامات النّفاق .

٤ ــ فى صدر الآية الكريمة نحن بصدد مشبّه وهو الّذى يبطل صدقته بالمنّ والأذى ومشبّهٍ به وهو الّذى يبطل إنفاقه بالرّياء وبكونها ليست لله تعالى .

٥ ــ النّهى عن إبطال الصّدقات بالمنّ والأذى توطئةٌ للحديث عن محور الآية الكريمة وهو المثل المتعلّق بالمرائى أو المنافق .

٦ ــ النّفاق كما هو معلومٌ نوعٌ من الكفر لأنّ المنافق يقرّ بلسانه ويكفر بقلبه ولا يعتقد

بذلك القلب[١] وحينما تختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ فذلك معناه من ناحيةٍ أنّه يشمل المنافق محور المثل فى الآية الكريمة ، ومن ناحيةٍ أخرى هو يشمل أنواع الكفر الأخرى الّتى يجمع بينها الإعلان ، وهى كفر الإنكار بألاّ يعرف الله أصلاً ولا يعترف به ، وما أكثر هذا النّوع من الكفر فى جاهليّتنا المعاصرة ، وكفر الجحود بأن يعترف بقلبه ولا يقرّ بلسانه ككفر أميّة بن أبى الصّلت ، وكفر المعاندة وهو أن يعرف الله بقلبه ويقرّ بلسانه ، ولا يدين به حسدًا وبغيًا ككفر أبى جهلٍ وأضرابه ، أو أن يعترف بقلبه ويقرّ بلسانه ويأبى أن يقبل كأبى طالب[٢] إنّ هذا التّذييل : ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم الّذى تبدو فيه المعانى جديدةً قديمةً فى آنٍ واحدٍ دائمًا فالتّذييل يشمل المنافق محور المثل ويضيف الجديد الّذى تبيّنّا .

٧ ــ يصحّ أن نتبيّن بين هذا المثل المائىّ فى الآية الكريمة وبين المثل المائىّ من سورة الرّعد ومن سورة البقرة نوعًا ولو طفيفًا من علاقة . وهذه هى آية سورة الرّعد ، قال تعالى[٣] : ﴿ أنزل من السّماء ماءً فسالت أوديةٌ بقدرها فاحتمل السّيل زبدًا رابيا ﴾ لقد نزّل العلماء الأودية منزلة القلوب ، ونزلوا الماء النّازل من السّماء منزلة آى القرآن الكريم بجامع نزول كلٍّ من القرآن الكريم والماء من السّماء . وكما تتفاوت الأودية فى اتساعها وضيقها وتوسّطها فى استقبال الماء كذلك تتفاوت القلوب فى استقبال آى الذّكر الحكيم[٤] وهاتان هما آيتا المثل المائىّ فى سورة البقرة . قال تعالى[٥] : ﴿ أو كصيّبٍ من السّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصّواعق حذر الموت . والله محيطٌ بالكافرين . يكاد البرق يَخْطَف أبصارهم كلّما أضاء لهم مشَوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . إنّ الله على كلّ شىءٍ قدير ﴾ والمثل كما هو واضحٌ فى المنافقين والمراد بالصّيّب آى الذّكر الحكيم الّتى يرغب عنها

---

(١) انظر لسان العرب « كفر »

(٢) انظر لسان العرب « كفر » .

(٣) سورة الرّعد ١٧ .

(٤) انظر مثلاً دراستنا للآية الكريمة فى دراستنا للسّورة بعنوان : « تأمّلات فى سورة الرّعد » ص ١٢٣ فما بعدها .

(٥) سورة البقرة ١٩ ، ٢٠ .

المنافقون ، وبالظّلمات شكوك المنافقين وريبهم ، وبالرّعد قوارع زواجر القرآن الكريم ، وبالبرق نور تعاليم القرآن الكريم الّتى يلهث المنافقون وراءها مضطرين وقد أطبقت عليهم الظّلمات . وكلّما تتابعت الأنوار المنبثقة من برق تعاليم القرآن تخطّفها المنافقون كلّ مرّة وذلك بالاندفاع مسرعين تبعًا لها وبعدد مرّاتها . وتشترك الصّاعقة مع الرّعد فى الصّوت ولكنّ صوت الصّاعقة هو الأشدّ . وتنفرد الصّاعقة بالنّار والنّور . وإذا كان النّور موجودًا فى البرق فإنّ الإحراق تنفرد به الصّاعقة وتستقلّ به أخيرًا . وإنّ صوارم أوامر القرآن الكريم وقوارع زواجره تنزل على المنافقين منزلة الصّواعق .

فى ضوء ما سبق نستطيع أن ننظر إلى المثل فى الآية الكريمة : ﴿ فمثله كمثل صفوانٍ عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صلدًا لا يقدرون على شيءٍ ممّا كسبوا ﴾ . ويصحّ أن يكون المعنى : يا أيّها الّذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى إبطالاً كإبطال المرائى الّذى ينفق ماله رئاء النّاس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثل هذا المرائى كمثل صخرةٍ صُلْبةٍ ملساء وحجرٍ قاسٍ ناعم ، وعلى هذا الحجر أو الصّفوان ترابٌ غير موصولٍ بهذا الصّفوان غير الموصول بالتّربة الجيّدة ، فليس التّراب بالتّربة الّتى ينمو فيها النّبات ويزكو ، وكذلك هذا المنافق بمثابة تلك الصّخرة الصّماء الّتى لا خير يرجى منها ولا أمل فى انبجاس مائها فضلاً عن انفجاره ، وإنّ ما ظهر من ذلك المنافق المرائى من أعمالٍ يبدو عليها الصّلاح هى أعمالٌ غير خالصةٍ لله تعالى فلا يريد بها المنافق المرائى وجه الله تعالى بل يريد الرّياء والسّمعة وقد كان له ما أراد . إنّ تلك الأعمال الّتى حسن ظاهرها وخبث باطنها بمثابة ذلك التّراب الّذى حسن ظاهره للعين فحسبه النّاظر تربةً جيّدة صالحةً لنموّ النّبات وزكائه ، بينما خبث باطن ذلك التّراب لأنّه بمثابة القشرة الخارجيّة الغلاّبة الغدّارة الّتى يختفى تحتها ذلك الحجر الصّلب الأملس والصّخرة الملساء النّاعمة .

والحقيقة أنّ شكل الصّفوان الأقرب للاستدارة مغرٍ لنا بتمثّل ما يقترب منه فى الشّكل من أجزاء الإنسان ، ذلك الجزء أو العضو الّذى نزّله المصطفى من الجسد منزلة المضغة الّتى تكاد تُمْضغَ لصغرها والّتى إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهى القلب . وفى هذه الحال نحن يصحّ أن نستفيد من وجه الشّبه الضّئيل بين آية

المثل هنا وآيات المثلين فى سورتى الرّعد والبقرة . وفى هذه الحال يصحّ أن يقال فى معنى المثل : يا أيّها الّذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم إبطالاً كإبطال المرائى غير الموصول القلب بالله تعالى والّذى مثل قلبه فى قسوته وصلابته وعجز أىّ مظهرٍ من مظاهر سبل الخير أن يجد منفذًا إليه كمثل صفوانٍ صُلْبٍ ناعم، وصخرةٍ صمّاء ملساء. وإذا كان على ظهر ذلك الصّفوان ترابٌ موهمٌ بأنّ ثمّة تربةً عميقةً جيّدةً صالحة لكلّ نبتةٍ أن تمتدّ بجذورها إلى تخوم التّربة وأن تنبسط فى امتداد جذعها وفروعها وأغصانها وأن تطرح أجود الثّمر وأن تملأ كلّ عينٍ بهجة وكلّ نفسٍ رضًا وسعادة ، فإنّ ما ظهر من ذلك القلب القاسى الصُّلب من أعمالٍ صالحةٍ مخالفةٍ لطبيعته هى فى الحقيقة موافقةٌ لحقيقة ذلك القلب ، وهى بمثابة ذلك التّراب الخدّاع على ظهر الصّفوان ، فكما أنّ ذلك التّراب على الصّفوان ضعيف الصّلة بذلك الصّفوان وغير موصولٍ بالتّربة الحقيقيّة الجيّدة ، وإن بدا للنّظرة الأولى الحمقاء غير ذلك ، كذلك تلك الأعمال الّتى تبدو صالحةً هى أعمالٌ غير صالحةٍ لأنّها متعلّقة بقلبٍ غير موصولٍ بالله تعالى ولأنّها أعمال لم يرد بها المرائى وجه الله تعالى إنّما أراد بها حسن الذّكر وقد كان له ما أراد .

فى ضوء هذا الفهم نحن نتبيّن أنّنا أفدنا حقّا من المثل المائىّ فى سورة الرّعد الّذى نزّلت القلوب فيه منزلة الأودية . فكما تختلف الأودية فى قدرتها على استيعاب ماء السّماء الّذى يتدفق جداول وأنهارا ، كذلك تختلف القلوب فى قدرتها على استقبال تعاليم القرآن الكريم واستيعاب تعاليم الإسلام . والمعروف أنّ المنافقين أقلّ الخلق حظًّا فى مجال الانتفاع من تعاليم القرآن الكريم والرّسول العظيم خاصّةً وأنّ المصطفى ﷺ بين ظهرانيْهم وتنزل عليه آى الذّكر الحكيم تباعًا ويتلوها على مسامعهم غضّةً طريّة . وإنّ قلوب المنافقين على النّحو الّذى أشرنا إليه من القسوة ومن الانغلاق لتذكّرنا بمثل قوله تعالى[١] : ﴿ أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالُها ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين أوتوا العِلْمَ ماذا قال آنفًا . أولئك الّذين طَبَعَ الله على قلوبهم واتّبعوا أهواءهم ﴾ وقوله تعالى[٣] : ﴿ ثمّ قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارةِ

---

(١) سورة محمّد ٢٤ (٢) سورة محمّد ١٦

(٣) سورة البقرة ٧٤ .

أو أشدُّ قسوة . وإنّ من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار . وإنّ منها لما يشّقّق فيخرج منه الماء . وإنّ منها لما يهبط من خشية الله . وما الله بغافلٍ عمّا تعملون ﴾ والمعروف أنّ المنافقين بنصّ القرآن الكريم إخوان اليهود والكفّار .

وإذا كنّا فى ضوء هذا الفهم قد وجدنا شبهًا قليلاً بين صدر المثل هنا والمثل فى سورة الرّعد ، فإنّا يصحّ أن نجد نسبة الشبه ذاتها بين عجز المثل هنا والمثل فى سورة البقرة . ويصحّ أن يكون معنى عجز المثل : ﴿ فأصابه وابلٌ فتركه صلدا ﴾ فأصاب الصّخرة الصّلبة النّاعمة والحجر الأصمّ الأملس مطرٌ شديد لا يمكن أن يخطئ الصّفوان والتّراب القليل الّذى عليه . وما دام التّراب على تلك الدّرجة من القلّة والذلّة ، وما دام المطر على تلك الدّرجة من الضّخامة والعظم ، فمن الطّبيعىّ أن يذهب الوابل بذلك التّراب وألاّ يبقى منه أدنى بقيّة ، وأن يبدو الصّفوان على حقيقته ، ويتعرّى أمام كلّ ناظر ، صخرةً صمّاء ملساء جرداء عاريةً من كلّ خيرٍ حاضرًا ومستقبلا . وهكذا انكشف الغطاء ، وذهب الخداع سدى ، والغشّ بددا ، وظهر الصّفوان على حقيقته . فكيف ظهر المنافق أو المرائى على حقيقته بعد أن تبيّن لنا وجه الشّبه الكبير ظاهرًا وباطنًا بين الصّفوان وبين قلب المنافق المرائى ؟ هنا نجد أنفسنا أمام المثل فى سورة البقرة ، الجانب المائىّ منه بخاصّة . قال تعالى : ﴿ أو كصيّبٍ من السّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصّواعق حذر الموت . والله محيطٌ بالكافرين ﴾ .

إنّ تعاليم القرآن الكريم تنزل على المنافق نزول الصّيّب من السّماء والوابل من المطر ويحاول ذلك المنافق جاهدًا أعنى قلبه أن يتخلّص من تلك التّعاليم ويتملّص من تلك التّبعات ، ويلحق بنزول آى الذّكر الحكيم عليه نزول الوابل من المطر على غير الرّاغب فيه المستعدّ لاستقباله نزول متعلّقات الماء المنهمر على قلب المنافق نزولاً غير مرضىٍّ عنه ولا مرغوبٍ فيه ، فها هى ذى شكوك المنافقين وقد أثيرت بمثابة الظّلمات المرتبطة بنزول الصّيّب من السّماء ، خاصّةً وقد أضيف إلى ظلمة اختفاء السّماء وراء السّحب اختفاء النّهار وراء الحجب ، وها هى ذى صوارم الأوامر وقوارع الزّواجر تنزل على المنافق منزلة الرّعد القاصف والصّواعق المحرقة ، وها هى ذى أنوار تعاليم القرآن تنزل على عين المنافق

منزلة البرق الّذى يكاد يخطف بصرها ويذهب بنورها .

فإذا عدنا إلى الشّقّ الثّانى من المثل : ﴿ فأصابه وابلٌ فتركه صلدًا لا يقدرون على شيءٍ ممّا كسبوا ﴾ استطعنا أن نتمثّل الوابل هنا فى صورة الصّيّب هنالك ، وها هى ذى تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين ، وقد جدّ الجدّ ، وحان وقت العمل الجادّ خدمةً للإسلام والمسلمين وترجمةً لتعاليم الإسلام إلى عملٍ إيجابىّ ، تكشف عن حقيقة قلب ذلك المنافق المرائى وتثبت بما لا يدع مجالاً للشّكّ أنّ ما صدر من أعمال صالحةٍ من قبل المنافق إنّما هى بمثابة طوق النّجاة الّذى يتمسّك به الغريق إيهامًا بأنّه مسلمٌ لله ربّ العالمين ، وبمثابة الرّماد الّذى يذرّ فى العيون إيحاءً بأنّه مؤمنٌ قلبًا وقالبًا وبأنّ باطنه كظاهره . أليس المنافق حريصًا على أن يأمن على دمه وماله وعرضه ؟ بلى . وما الّذى يمنعه من أن يتعلّق بطوق النّجاة أو أن يركب الموجة فى هيئة القدر الضّئيل الّذى لا يسمن ولا يغنى من جوعٍ من الأعمال الصّالحة الّتى يقوم بها والّتى يوهم أنّه أراد بها وجه ربّه الأعلى ، بينما أراد فى حقيقة الأمر الرّياء والسّمعة . إنّ هذه الأعمال الصّالحة الّتى جعلها الله تعالى هباءً منثورا لأنها لم يرد المنافق بها وجه الله تعالى بمثابة الرّماد الّذى يذرّه المنافق على عيون الآخرين موهمًا لهم بأنّ الأعمال الصّالحة الّتى يقوم بها هى بمثابة الدّليل الظّاهر والمؤشّر البارز على الأعمال الأخرى الصّالحة غير الظّاهرة والنّوايا الحسنة تجاه الإسلام والمسلمين . والحقيقة أنّ تلك الأعمال الصّالحة الّتى قام بها المنافق المرائى الّذى لا يريد بها وجه الله تعالى بمثابة ذلك التّراب على الصّفوان ، ذلك التّراب غير الصّالح لأن تنمو فيه البذور ، ويزكو فيه النّبات ، وتنضج فيه الثّمار ، لأنّه ترابٌ موصولٌ بصخرة صمّاء ملساء وليس بتربةٍ جيّدةٍ صالحة .

وكما ظهرت الصّخرة الصّمّاء الملساء على حقيقتها بانهمار الصّيّب عليها ، وذهاب التّراب الخدّاع الغشّاش كأمس الدّابر ، كذلك ظهر قلب المنافق المرائى على حقيقته ، بعد أن ظهرت حقيقة العمل الصّالح الّذى قام به والباعث الحقيقى على القيام بذلك العمل الصّالح وهو الرّياء والسّمعة . وبما أنّ كلّ عمل ينبغى أن يتحقّق له شرطان كى يتفضّل الله تعالى بقبوله ، وأوّل الشّرطين أن يكون العمل صالحًا موافقًا لما جاء به الشّرع الحكيم ،

وآخر الشّرطين أن يكون العمل خالصًا لوجه الله تعالى الكريم ، ولمّا كان الشّرط الآخر غير متحقّق فقد أحبطه الله تعالى وجعله جلّ وعلا هباءً منثورا ، وإلى ذلك أشار قوله تعالى : ﴿ لا يقدرون على شيءٍ ممّا كسبوا ﴾ والمعنى أنّهم لا يقدرون يوم القيامة ، الحصول فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود ، على ثواب شيءٍ ممّا عملوا .

وإذا كان الوابل الّذى أصاب الصّفوان هو الّذى كشف عن حقيقة ذلك الحجر الأصمّ الأملس ، فما الّذى كشف عن حقيقة قلب ذلك المنافق المرائى ؟ إنّه الصّيّب فى مَثَل سورة البقرة والّذى عرفنا أنّه عبارةٌ عن تتابع قطرات غيث القرآن الكريم وتدفّق مائه وتتابع أمواجه . لقد كشفت تلك التّعاليم المتتابعة عن حقيقة ذلك المنافق وما يضمره قلبه من كفرٍ ينطوى عليه وما يخفيه من حقدٍ دفينٍ على الإسلام وأهله يحاول أن يصرف الأنظار عنه بتلك الأعمال القليلة الصّالحة الّتى جعلها الله تعالى هباءً منثورًا لأنّها صادرةٌ عن قلبٍ غير موصولٍ بالله تعالى .

وإنّ هذا القول الّذى ختم به المثل : ﴿ لا يقدرون على شيءٍ ممّا كسبوا ﴾ يقرّر حقيقة خسارة هذا المنافق المرائى ومن كان على شاكلته يوم القيامة ، اليوم الّذى هو أحوج ما يكون فيه إلى ثواب تلك الأعمال لو لم يجعلها الله تعالى هباءً منثورا ، ولهذا روعى معنى اسم الموصول « الّذى » فجاءت صيغة الجمع فى القول : ﴿ لا يقدرون على شيءٍ ممّا كسبوا ﴾ .

وإنّ هذا القول الّذى ختمت به الآية الكريمة : ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ يشمل كفر النّفاق كما تبيّنا كما يشمل كلّ أنواع الكفر الأخرى ، وبهذا يضيف التّذييل جديدًا من المعانى .

وينبغى ألاّ ننسى أنّ هذا المثل الّذى يتعلّق بالمرائى المنافق الّذى بطل عمله مبنيٌّ على المشبّه به فى القول : ﴿ كالّذى ينفق ماله رئاء النّاس .... ﴾ أمّا المشبّه فهو الّذى أبطل صدقته بالمنّ والأذى . إنّ هؤلاء الثلاثة المانّ والمؤذى والمرائى قد جمعت الآية الكريمة بينهم فى قرن وألحقت بهم فى آخرها الكافرين عمومًا . إنّ هؤلاء جميعًا لا يهديهم الله سبحانه وتعالى بل يزيدهم ضلالاً إلى ضلال وعمىً إلى عمى لأنّهم تنكّبوا الصّراط المستقيم عن عمدٍ وسبق إصرار .

وعن هذا المرائى يقول ابن القيمّ فى أمثال القرآن(١) : ﴿ وكذلك قلب المرائى ليس له ثباتٌ عند وابل الأمر والنّهى والقضاء والقدر . فإذا نزل عليه وابل الوحى انكشف عنه ذلك التّراب اليسير الّذى كان عليه ، فبرز ما تحته صلدًا لانبات فيه . وهذا مثلٌ ضربه الله سبحانه لعمل المرائى ونفقته ، لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيءٍ منه أحوج ما كان إليه . وبالله التّوفيق ﴾ .

---

(١) ص ٥٢ .

الآيــة رقــم (٢٦٥)

قال تعالى : ﴿ ومثل الّذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنّةٍ بربوةٍ أصابها وابلٌ فآتت أُكُلَها ضعفين فإن لم يُصِبْها وابلٌ فطلٌّ ، والله بما تعملون بصير ﴾ .

ومثل الّذين ينفقون أموالهم : ومثل نفقة الّذين ينفقون أموالهم[١] .

ابتغاء : معناه طلب[٢] وهو مفعولٌ من أجله وتثبيتاً من أنفسهم عطفٌ عليه[٣] ويقول ابن عطيّة[٤] : « وابتغاء نصب على المصدر فى موضع الحال . وكان يتوجّه فيه النّصب على المفعول من أجله لكنّ النّصب على المصدر هو الصّواب من جهة عطف المصدر الّذى هو تثبيتاً عليه » .

مرضاة الله : مرضاة مصدر من رَضِيَ يَرْضَى[٥] .

وتثبيتاً من أنفسهم : « يعنى بذلك وتثبيتاً من أنفسهم يعنى لهم على إنفاق ذلك فى طاعة الله وتحقيقاً ، مِنْ قول القائل : ثَبَّتُّ فلاناً فى هذا الأمر إذا صحَّحْتَ عزمه وحقّقته وقوّيت فيه رأيه أُثَبِّتُهُ تثبيتاً كما قال ابنُ رَواحة :

فثبّت الله ما آتاك من حَسَنٍ تثبيتَ موسى ونصراً كالّذى نُصَروا

وإنّما عَنَى الله جلّ وعزّ بذلك أنّ أنفسهم كانت موقَنةً مصدّقةً بوعد الله إيّاها فيما أنفقت فى طاعته بغير منٍّ ولا أذىً فثبّتهم فى إنفاق أموالهم ابتغاء مرضاة الله وصحّح عزمهم وأراهم يقيناً منها بذلك وتصديقاً بوعد الله إيّاها ما وعدها . ولذلك قال من قال من أهل التّأويل فى قوله : وتثبيتاً : وتصديقاً ، ومن قال منهم : ويقيناً ، لأنّ تثبيت أنفس المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله إيّاهم إنّما كان عن يقينٍ منها وتصديقٍ بوعد الله[٦] وعن

---

(١) انظر الكشّاف ١/٢٩٨ والجلالين (٢) تفسير القرطبىّ ١١٢٢ والجلالين

(٣) تفسير القرطبىّ ١١٢٢

(٤) تفسير القرطبىّ ١١٢٢ وانظر البحر المحيط ٢/٣١٠

(٥) تفسير القرطبى ١١٢٢ (٦) تفسير الطّبرى ٣/٤٦

الشّعبى : وتثبيتاً من أنفسهم قال تصديقاً ويقيناً »[١] « عن قتادة .... التّثبيت : اليقين »[٢] ويقول القرطبىّ[٣] : « وقال الشّعبّى والسّدّىّ وقتادة أيضاً وابن زيد وأبو صالح وغيرهم : وتثبيتاً معناه وتيقّناً ، أى أنّ نفوسهم لها بصائر فهى تثبّتهم على الإنفاق فى طاعة الله تثبيتاً » ويقول ابن كثير[٤] : « أى وهم متحقّقون ومتثبّتون أنّ الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء . ونظير هذا فى المعنى قوله عليه السّلام فى الحديث الصّحيح المتّفق على صحّته : من صام رمضان إيماناً واحتساباً ، أى يؤمن أنّ الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه » ويقول أبو حيّان[٥] : « ثَبَت فعل لازم معناه تمكّن ورسخ وتحقّق . وثبّت معدًّى بالتّضعيف ومعناه مكّن وحقّق ..... فالمعنى والله أعلم أنّهم يثبّتون من أنفسهم على الإيمان بهذا العمل الّذى هو إخراج المال الّذى هو عديل الرّوح فى سبيل الله ابتغاء رضاه ، لأنّ مثل هذا العمل شاقّ على النّفس فهم يعملون لتثبيت النّفس على الإيمان وما ترجوه من الله بهذا العمل الصّعب لأنّها إذا ثبتت على الأمر الصّعب انقادت وذلّت له » « ولمّا وصف صاحب النّفقة بوصفين قابل ذلك هنا بوصفين . فقوله ابتغاء مرضاة الله ، مقابلٌ لقوله : رئاء النّاس . وقوله : وتثبيتاً من أنفسهم ، مقابل لقوله : ولا يؤمن بالله واليوم الآخر »[٦] .

كمثل جنّة : الجنّة البستان ، وهى قطعة أرضٍ تنبت فيها الأشجار حتّى تغطّيها ، فهى مأخوذةٌ من لفظ الجنّ والجنين لاستتارهم[٧] .

بربوة : الرّبوة : المكان المرتفع ارتفاعاً يسيراً[٨] المستوى[٩] ومعه فى الأغلب كثافة

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٤٧/٣ وقد نسب القرطبىّ ١١٢٢ هذا الرّأى لابن عبّاس .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٤٧/٣

(٣) تفسير القرطبىّ ١١٢٢

(٤) تفسير ابن كثير ٣١٨/١

(٥) البحر المحيط ٣١١/٢ وانظر الكشّاف ٢٩٨/١

(٦) البحر المحيط ٣١٠/٢

(٧) تفسير القرطبىّ ١١٢٣ وانظر تفسير الطبرىّ ٤٨/٣ وتفسير ابن كثير ٣١٩/١ والكشّاف ٣٩٨/١ والجلالين .

(٨) تفسير القرطبىّ ١١٢٣

(٩) تفسير الطّبرىّ ٤٨/٣

تراب . وما كان كذلك فنباته أحسن ولذلك خصّ الرّبوة بالذّكر[١] وقال الخليل : الرّبوة أرضٌ مرتفعةٌ طيّبة ، وخصّ الله تعالى بالذّكر الّتى لا يجرى فيها ماء من حيث العرف فى بلاد العرب ، فمثّل لهم ما يحسّونه ويدركونه[٢] وإنّما وصفها بذلك جلّ ثناؤه لأنّ ما ارتفع عن المسايل والأودية أغلظ وجنان ما غلظ من الأرض أحسن وأزكى ثمراً وغرساً وزرعاً ممّا رقّ منها ، ولذلك قال أعشى بنى ثعلبة فى وصف روضة :

ما روضةٌ من رياض الحَزْن معشبةٌ خضراءُ جاء عليها مسبلٌ هَطِلُ[٣]

وإنّما سمّيت الرّبوة لأنّها ربت فغلظت وعلت من قول القائل : ربا هذا الشّىء يربو إذا انتفخ فعظم[٤] « قال ابن جرير رحمه الله[٥] : وفى الرّبوة ثلاث لغات هنّ ثلاث قراءات ، بضمّ الراء وبها قرأ عامّة أهل المدينة والحجاز والعراق وفتحها وهى قراءة بعض أهل الشّام والكوفة ، ويقال إنّها لغة تميم . وكسر الرّاء ويذكر أنّها قراءة ابن عبّاس »[٦] .

أصابها : يعنى الرّبوة[٧] .

وابلٌ : مطرٌ شديدٌ[٨] عظيم القطر[٩] .

فآتت : أى أعطت[١٠] والمفعول الأوّل محذوف التّقدير فآتت صاحبها أو أهلها أكلها[١١] .

أكلها : بضمّ الهمزة : الثّمر الّذى يؤكل ، ومنه قوله تعالى : تؤتى أكلها كلّ حين . والشّىء المأكول من كلّ شىءٍ يقال له أُكل[١٢] وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو :

---

(١) تفسير القرطبى ١١٢٣

(٢) تفسير القرطبىّ ١١٢٣ وانظر البحر المحيط ٣١١/٢

(٣) تفسير الطّبرىّ ٤٨/٣ ورواية تفسير القرطبى ١١٢٤ : « وابلٌ هَطِل » .

(٤) تفسير الطّبرىّ ٤٨/٣

(٥) انظر تفسير الطّبرىّ ٤٨/٣

(٦) تفسير ابن كثير ٣١٩/١

(٧) تفسير القرطبىّ ١١٢٤

(٨) تفسير القرطبىّ ١١٢٤ وتفسير ابن كثير ٣١٩/١

(٩) تفسير الطّبرىّ ٤٨/٣ والكشّاف ٢٩٨/١

(١٠) تفسير القرطبىّ ١١٢٤ والجلالين

(١١) البحر المحيط ٣١٢/٢

(١٢) تفسير القرطبىّ ١١٢٤

أُكْلَها بضمّ الهمزة وسكون الكاف ، وكذلك كلّ مضافٍ إلى مؤنث[١] وإضافته إلى الجنّة إضافة اختصاص ، كسرج الفرس وباب الدّار ، وإلاّ فليس الثّمر ممّا تأكله الجنّة[٢] .

ضعفين : أى أعطت ضعفى ثمر غيرها من الأرضين ، أى أخرجت من الزّرع ما يخرج غيرها فى سنتين[٣] ونصب ضعفين على الحال[٤] .

فإن لم يصبها وابلٌ فطلّ : قال المبرّد وغيره : تقديره فطلٌّ يكفيها . وقال الزّجاج : فالّذى يصيبها طلّ . والطّلّ المطر الضّعيف المستدِقّ من القطر الخفيف ، قاله ابن عبّاس وغيره ، وهو مشهور اللّغة . وقال قومٌ منهم مجاهد : الطّلّ : النّدى . قال ابن عطيّة : وهو تجوّزٌ وتشبيه . قال النحّاس : وحكى أهل اللّغة وَبَلَتْ وأَوْبَلَتْ ، وطَلَّتْ وأطَلَّتْ . وفى الصّحاح : الطّلّ أضعف المطر والجمع الطِّلال . تقول منه : طُلَّت الأرض وأطلّها النّدى فهى مطلولة[٥] ومنه طُلَّ دَمُ فلانٍ إذا قلّ الاعتداد به ، ويصيرُ أثره كأنّه طَلّ ، ولما بينهما من المناسبة قيل لأثر الدّار طللٌ ولشخص الرّجل المترائى طَلَل ، وأطلَّ فلانٌ أَشْرَفَ طَلَلَه[٦] قال الماوردىّ : وزرع الطّلّ أضعف من زرع المطر وأقلّ ريعاً[٧] خرّج مسلمٌ وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النّبى ﷺ : لا يتصدّق أحدٌ بتمرةٍ من كسبٍ طيّب إلاّ أخذها الله بيمينه فيربيّها كما يربّى أحدكم فلوّه[٨] أو فصيلة حتّى تكون مثل الجبل أو أعظم . خرّجه الموطّا[٩] يقول ابن كثير[١٠] : « أى هذه الجنّة بهذه الرّبوة لا تمحل

---

(١) تفسير القرطبى ١١٢٤ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣/٤٨

(٢) تفسير القرطبى ١١٢٤ وانظر البحر المحيط ٢/٣١٢

(٣) تفسير القرطبىّ ١١٢٥

(٤) البحر المحيط ٢/٣١٢

(٥) تفسير القرطبى ١١٢٥

(٦) مفردات الرّاغب ص ٣٠٥

(٧) تفسير القرطبىّ ١١٢٥

(٨) الفِلْو ، بكسر الفاء وسكون اللاّم وجمعه أفلاء وفِلاء بكسر الفاء فى الأخير . والفَلُوّ ، بفتح الفاء وضمّ اللاّم وتشديد الواو ، والفُلُوّ بضمّ الفاء واللاّم وتشديد الواو ، وجمعه أفْلاء وفَلاوَى ، بفتح الفاء والواو فى الأخير : الجحش والمُهْر فُطِما أو بلغا السّنة .

(٩) تفسير القرطبى ١١٢٥

(١٠) تفسير ابن كثير ١/٣١٩

أبداً لأنّها إن لم يصبها وابلٌ فطلّ ، وأيًّا مّا كان فهو كسبها . وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً بل يتقبّله الله ويكثّره وينمّيه ، كلٌّ عاملٍ بحَسَبِه » .

ضربت الآية الكريمة السّابقة مثل الّذى ينفق ماله رئاء النّاس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر بأنّه كمثل صفوانٍ عليه ترابٌ فأصابه مطرٌ شديد فتركه أجرد وأظهره على حقيقته أصم أملس . وهذه الآية الكريمة التّالية تضرب فى المقابل مثل الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله تعالى بأنّهم كمثل جنّة بربوة أصابها مطرٌ غزير فآتت ثمرها ضعفين فإن لم يصبها مطرٌ غزيرٌ أصابها طلٌّ ، أى مطرٌ خفيف ، فكفاها وأغناها . فمع كلّ واحدةٍ من جزئيّات المثل . قال تعالى : ﴿ ومثل الّذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ ونستطيع أن نتبيّن دور حرف العطف الواو فى عطف الكلام اللاّحق على السّابق بقصد تبيين التّقابل الشّديد فى صفات الفريقين اللّذين يتحدّث عن كلٍّ منهما أحد المثلين . وعلى غرار خلع صفتين سيّئتين على الفريق الأوّل بأنّه من ناحيةٍ ينفق ماله رئاء النّاس ، ومن ناحيةٍ أخرى هو لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، وحينما لا تصلح البداية ، الإيمان بالله تعالى ، ولا تصلح النّهاية ، الإيمان باليوم الآخر ، لا يصلح ما بينهما ، على غرار خلع صفتين سيّئتين على الفريق الأوّل تخلع هذه الآية الكريمة على الفريق المقابل صفتين حسنتين ، فهو ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وتثبيتاً له من نفسه المطمئنّة المؤمنة الواثقة فى ثواب الله تعالى الجزيل على الإنفاق فى سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته .

وأوّل ما يلفت النّظر بالمقارنة بين المثلين هو أنّ المثل السّابق يتعامل مع المنافق المرائى بصيغة المفرد ، وكأنّه يمثّل فئةً قليلة الوجود ، وأنّ هذ المثل التّالى يتعامل مع المؤمنين المطمئنّين لما ينفقون ابتغاء مرضاة الله تعالى بصيغة الجمع ، وكأنّ هؤلاء الّذين يمثّلون عباد الله تعالى على الحقيقة ، فهم كثيرون ، وهم أسوةٌ حسنةٌ لسواهم .

ومع أنّ القول : ﴿ ابتغاء مرضاة الله ﴾ يؤدى المعنى الّذى يؤديه القول الّذى جاء من قبل أكثر من مرّة : ﴿ فى سبيل الله ﴾ فكأن كلاً من القولين ينظر إلى المسألة من زاويةٍ خاصةٍ به . وكأنّ القول : ﴿ فى سبيل الله ﴾ يراعى البداية والوسيلة ، وكأنّ القول : ﴿ ابتغاء مرضاة الله ﴾ يراعى النهاية والغاية .

وإذا كنّا بشأن هذين التّعبيرين أمام الوسيلة والبداية من ناحية ، الغاية والنّهاية من ناحيةٍ أخرى ، وبينهما نوعٌ من التّكامل بالتّقابل ، فإنّ هذا التّكامل بالتّقابل نتبيّنهما كذلك فى الصّفتين اللّتين خلعتهما الآية الكريمة على المؤمنين فى مقابل الصّفتين اللّتين خلعتهما الآية الكريمة السّابقة على المنافقين . ويبدو ذلك جليًّا بتأمّل الصّفتين معاً : ﴿ ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ إنّ القول ﴿ ابتغاء مرضاة الله ﴾ يعنى بالغاية والنّهاية ، وإنّ القول : ﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ يُعْنى بالباعث والبداية .

وإذا كنّا بشأن هذين التّعبيرين : ﴿ فى سبيل الله ﴾ ﴿ ابتغاء مرضاة الله ﴾ نستطيع أن نتبيّن اتّجاه التّعبيرين وفق المألوف ، من البداية إلى النّهاية ، من الوسيلة إلى الغاية ، فإنّا بشأن الصّفتين هنا : ﴿ ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ نستطيع أن نفهم حكمةً أخرى وراء إعادة التّرتيب ، فالهدف والغاية يتقدّمان والباعث والبداية يتأخّران . أمّا هذه الحكمة فإنّها تقديم الأهمّ على المهمّ . إنّ الأهم رضا الله تعالى وإنّ المهم خروج المال المتصدّق به من قلب المنفق قبل خروجه من يده ، مغادرتُه نفسه قبل مغادرته جيبه . والآن مع كلٍّ من الصّفتين .

إنّ الصّفة الأكثر أهميّة هى الصّفة الأولى فى قوله عزّ من قائل : ﴿ ومثل الّذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ﴾ إنّ هؤلاء المؤمنين المتّقين تتحقّق فيهم صفةٌ من أهمّ صفات المتّقين الّذين أشارت إليهم بداية سورة البقرة ونصّت على نعوتهم ومنها الإنفاق فى سبيل الله تعالى . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ الم . ذلك الكتابُ لا رَيْبَ فيه هُدًى للمتّقين . الّذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصّلاة وممّا رزقناهم ينفقون . والّذين يؤمنون بما أُنْزل إليك وما أُنْزِل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدًى من ربّهم وأولئك هم المفلحون ﴾ وبالنّظر إلى هذه الآيات الكريمات يتبيّن أنّ إنفاق هؤلاء المتّقين يأتى عقب النّصّ على إيمانهم بالغيب وإقام الصّلاة ، وعقب النّصّ على كون القرآن الكريم هدًى لهم . وهذا يعنى تحقّق كلّ النّعوت فى هؤلاء المنفقين ابتغاء مرضاة الله تعالى ، من تصديقٍ

---

(١) سورة البقرة ١ — ٥

بالقرآن الكريم وبالكتب من قبله ، وإيمانٍ بالغيب ومنه الإيمان بالآخرة ، ومن إقامةٍ للصّلاة عماد الدّين وإنفاقٍ فى سبيل الله تعالى فى هيئة الزّكاة والصدّقة والنّفقة بعامّة . إنّ هذه المعانى كلّها وإنّ هذه النّعوت كلّها يوحى بها وبتحقّقها فى هؤلاء المؤمنين المتّقين القول : ﴿ ابتغاء مرضاة الله ﴾ وإذا رضى الله تعالى على عبدٍ من عباده المسلمين حقّق له الحياة الطّيبة فى الأولى والآخرة وقد قال تعالى[1] : ﴿ من عَمِل صالحاً من ذكرٍ أو نثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ وفى ضوء الفهم على هذا النّحو لقوله تعالى : ﴿ ابتغاء مرضاة الله ﴾ نستطيع أن نفهم أنّ هذا القول فى حقّ المؤمنين الّذى يشمل هذه الصّفة الحسنة فى حقّهم ، يقابل القول السّابق فى حقّ المنافقين المرائين والّذى يشمل إحدى صفاتهم السّيّئة : ﴿ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى الصّفة الأخرى المتعلّقة هذه المرّة بالباعث على الإنفاق فى سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته جلّ وعلا : ﴿ وتثبيتا من أنفسهم ﴾ استطعنا أن نتبيّن الدّور العظيم لهذه النّفس المؤمنة المطمئنّة . إنّها هى فى ذاتها ابتداءً ثابتة الإيمان راسخة اليقين على علمٍ أكيدٍ بأنّ ما تملكه فى يدها إنّما هو من فضله تعالى وماله جلّ وعلا الّذى جعلها مستخلفةً فيه ، وعلى ثقةٍ مطلقةٍ بأنّ لعباد الله تعالى حقًّا ثابتاً فى مال الله تعالى الّذى آتاها الله تعالى إيّاه ، وبأنّها حينما تسخو ببعض ذلك المال فى سبيل الله تعالى وتجود بشىءٍ منه ابتغاء مرضاة الله تعالى ، فإنّ ثواب الله تعالى الجزيل ينتظرها فى الآخرة ، إضافةً إلى السّعادة الّتى تغمرها فى هذه الحياة الأولى ، والطمأنينة الّتى تشملها ، والبهجة الّتى تمتلئ بها وتفيض منها . وإنّ تلك النّفس المؤمنة المطمئنّة الّتى تلك بعض صفاتها تتجسّد فى شخص صاحبها نيّةً صادقةً فى عمل الصّالحات واستباق الخيرات ، ورغبةً أكيدةً فى الإنفاق فى سبيل الله تعالى والتّصدّيق ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وتجرّدًا تامّاً عن أىّ غايةٍ أخرى خسيسة وأىّ غرضٍ آخر غير نبيل ، وثقةً مطلقةً فى أنّ ما ينفق ابتغاء مرضاة الله تعالى هو

---

(١) سورة النحل ٩٧

الباقى فى الحقيقة وهو الرّبح على التّحقيق . لكلّ ذلك فإنّ ما تجود به نفس هذا الإنسان يغادر تلك النّفس قبل أن يغادر الجيب ، ويخرج من القلب قبل أن يخرج من اليد . لا نيّة سيّئةً توجّهه ولا غايةَ رخيصةً تفسده . قد خلص لله تعالى الواحد الأحد ابتداءً . وعرى من المنّ ومن الأذى انتهاءً . إنّ كلّ هذه المعانى النّبيلة الّتى تتجلّى فى شخص تلك النّفس النّبيلة ، إنّما تحقّقت بفضل الله تعالى ترجمةً لتثبيت النّفس المؤمنة المطمئنّة صاحبها على البذل والعطاء ، الصّدقة والإنفاق ، فى سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته جلّ وعلا .

وإنّ مَثَلَ ما ينفق أولئك المؤمنون المتّقون من كثير المال الطّيّب أو كثيرد كمثل جنةٍ فيحاء[1] وحديقةٍ غنّاء ، وبستانٍ وارف الظّلال ، ناضج الثّمار ، بربوةٍ عالية ، مستوية السّطح ، جيّدة التّربة ، تنال حظّها الموفور ، من أشعّة الشّمس ومن الرّياح ، لذا نما نبتها ، ورسخ شجرها ، وراق منظرها ، وامتدّت أفنانها ، وتشابكت أغصانها ، وطابت ثمارها ، وفاح عبيرها وشذاها ، وتوّج كلّ ذلك الفضل من الله تعالى على تلك الجنّة فى تلك الرّبوة ، بالمطر الغزير الّذى أصابها ، والوابل الشّديد الّذى لم يخطئها ، فآتت أكلها ضعفين ، وأعطت من ثمرها مثلى ما يعطى غيرها من الجنان الّتى ليس لها مثل هذا الحظ والنّصيب . فإن لم يصب الجنّة وابل ، والرّبوة صيّب ، أصابها طلٌّ فكفاها ، وقطرٌ خفيف فأغناها ، لجودة التّربة ، وصحّة الموقع ، وسلامة البيئة .

إنّ الوابل حينما يصيب الجنّة يكون الأُكُل كثيراً والثّمر غزيرا ، وإنّ الطّلّ حينما يصيب الجنّة يكون الأُكُل غير بعيدٍ من سابقه من حيث الكميّة والكيفيّة . وإنّ الأكل الكثير والثّمر الغزير يقابلان الثّواب الجزيل لكثير المال وغزير الصّدقات فى سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته ، وإنّ الأُكُل والثّمر غير البعيدين من سابقيهما يقابلان الإنفاق القليل والصّدقة اليسيرة فى سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته . إنّ تلك الجنّة الّتى تلك صفتها لا يمكن أن تخلف الثّمر ، وإنّ النّفقة ابتغاء مرضاة الله تعالى لا يمكن أن تبور أبداً ، كثرت تلك النّفقة أو قلت ، على غرار كثرة المطر الّذى يصيب الجنّة بالرّبوة أو قلّته ووفاء

---

(١) واسعة .

الجنّة دائماً بالوعد . ومن الّذى يعد بالثّواب الجزيل على الإنفاق فى سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته ؟ إنّه جلّ وعلا الكبير المتعال ذو الجلال والإكرام مالك الملك .

وفى مقابل ما ختم به المثل السّابق فى حقّ المنافقين : ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ يختم المثل فى حقّ المؤمنين المتّقين بالقول : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ إنّ ما تعملونه أيّها المخاطبون لا يخفى منه شيءٌ على الله تعالى الّذى يعلم حقائق نيّاتكم وسيجازيكم على نيّاتكم وأعمالكم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ . ﴿ ولا يظلم ربّك أحداً ﴾[١] .

الآيــة رقــم (٢٦٦)

قال تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أحدكم أن تكون له جنّةٌ من نخيلٍ وأعنابٍ تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كلّ الثّمرات وأصابه الكِبَرُ وله ذرّيّةٌ ضعفاءُ فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت . كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون ﴾ .

أيودّ : أيحبّ[٢] .

أحدكم : واحدٌ منكم على طريق البدليّة[٣] .

أن تكون له جنّة : يعنى بستاناً[٤] والهمزة للاستفهام ، والمعنى على التّبعيد والنّفى[٥] والإنكار[٦] .

من نخيلٍ : اسم جمع أو جمع تكسير كنخل .... قال الرّاغب : سمّى بذلك لأنّه منخول الأشجار وصفوها ، وذلك أنّه أكرم ما ينبت لكونه مشبهاً للحيوان فى احتياج الأنثى منه إلى الفحل فى التّذكير أى التّلقيح ، وأنّه إذا قطع رأسه لم يثمر[٧] .

---

(١) سورة الكهف ٤٩
(٢) تفسير الطّبرى ٣/٥٠
(٣) البحر المحيط ٢/٣١٤
(٤) تفسير الطّبرى ٣/٥٠
(٥) البحر المحيط ٢/٣١٣ والجلالين
(٦) الكشّاف ١/٢٩٩
(٧) البحر المحيط ٢/٣٠٣ وانظر مفردات الرّاغب ص ٤٨٦

وأعناب : العنب ثمر الكرم وهو اسم جنس واحده عنبة وجمع على أعناب[١] وخصّ النّخيل والأعناب بالذّكر لشرفهما وفضلهما على سائر الشّجر[٢] وإنّ كان فى الجنّة غيرهما[٣] وحيث جاء فى القرآن ذكر هذا نصّ على النّخيل دون الثّمرة ، وعلى ثمرة الكرم دون الكرم وذلك لأنّ أعظم منافع الكرم هو ثمرته دون أصله . والنّخيل كلّه منافعه عظيمة توازى منفعة ثمرته من خشبه وجريده وليفه وخوصه وسائر ما يشتمل عليه فلذلك والله أعلم اقتصر على ذكر النّخيل وثمرة الكرم[٤] .

له فيها من كلّ الثّمرات : هذا يدلّ على أنّه فيه أشجارٌ غير النّخيل والكرم[٥] يريد ليس شيءٌ من الثّمار إلاّ وهو فيها نابت[٦] .

وأصابه الكبر : عطف ماضياً على مستقبل وهو تكون . وقيل : يودّ فقيل : التّقدير وقد أصابه الكبر . وقيل إنّه محمولٌ على المعنى ، لأنّ المعنى أيودّأحدكم أن لو كانت له جنّة . وقيل : الواو واو الحال ، وكذا فى قوله تعالى : وله[٧] كقوله : ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ . ﴿وقعدوا لو أطاعونا﴾ أى وقد كنتم وقد قعدوا[٨] والكبر : الشّيخوخة وعلوّ السّنّ[٩] .

وله ذرّيّةٌ ضعفاء : صبيةٌ صغار ويحتمل أن يراد بضعفاء محاويج[١٠] بناتٍ وغلماناً[١١] .

فأصابها : فى العطف بالفاء فى قوله : فأصابها إعصار ، دليلٌ على أنّها حين أزهت وحسنت للانتفاع بها أعقبها الإعصار [١٢] .

---

(١) البحر المحيط ٢/٣٠٣
(٢) تفسير القرطبىّ ١١٢٧
(٣) البحر المحيط ٢/٣١٤ والكشّاف ١/٢٩٩
(٤) البحر المحيط ٢/٣١٤
(٥) البحر المحيط ٢/٣١٤
(٦) تفسير القرطبىّ ١١٢٧
(٧) تفسير القرطبى ١٢٢٧ وانظر الكشاف ١/٢٩٩
(٨) البحر المحيط ٢/٣١٤
(٩) البحر المحيط ٢/٣١٤
(١٠) البحر المحيط ٢/٣١٥ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣/٥٠
(١١) تفسير القرطبىّ ١١٢٨
(١٢) البحر المحيط ٢/٣١٥

إعصار : الإعصار هو الرّيح العاصف تهبّ من الأرض إلى السّماء كأنّها عمود تجمع أعاصير[١] الزّجّاج : الإعصار فى اللّغة الرّيح الشّديدة الّتى تَهبّ من الأرض إلى السّماء كالعمود ، والّتى يقال لها الزّوبعة . المهدوىّ : قيل لها إعصار لأنّها تلتفّ كالثوب إذا عُصِر . وقيل : إنّما قيل للرّيح إعصار لأنّه يعصر السّحاب . والسّحاب معصرات ، إمّا لأنّها حوامل فهى كالمعصر[٢] من النّساء . وأمّا لأنّها تنعصر بالرِّياح . وحكى ابن سيدة أنّ المعصرات فسّرها قومٌ بالرّياح لا بالسّحاب . ابن زيد : الإعصار ريح عاصف وسموم شديدة ، وكذلك قال السّدّى : الإعصار الرّيح والنّار السموم . ابن عبّاس : ريح فيها سمومٌ شديدة[٣] .

فيه نار : قال فيه فأتى بالضّمير مذكّراً لأنّ الإعصار مذكّر من سائر أسماء الرّياح[٤] معنى ذلك ريح فيها سمومٌ شديدة[٥] .

فاحترقت : هذا فعلٌ مطاوعٌ لأحرق كأنه قيل : فيه نارٌ أحرقتها فاحتـرقت ، كقولهم : أنصفته فانتصف وأوقدته فاتّقد ، وهذه المطاوعة هى انفعالٌ فى المفعول يكون له قابليّةٌ للواقع به فيتأثّر له ، والنّار الّتى فى الإعصار هى السّموم الّتى تكون فيها[٦] .

كذلك يبيّن الله لكم الآيات : أى مثل هذا البيان نصرّف الأمثال المقرّبة الأشياء للذّهن[٧] وكما بيّن لكم ربّكم تبارك وتعالى أمر النّفقة فى سبيله وكيف وجّهها ومالكم وما ليس لكم فعله فيها كذلك يبيّن لكم الآيات سوى ذلك فيعرّفكم أحكامها وحلالها وحرامها ويوضّح لكم حججها إنعاماً منه بذلك عليكم[٨] .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣/٥٣ وانظر تفسير القرطبىّ ١١٢٧

(٢) المعصر الّتى هى عرضةٌ للحمل من النّساء . وفى مفردات الرّاغب ص ٣٣٦ والمُعْصِر المرأة الّتى حاضت ودخلت فى عصر شبابها .

(٣) تفسير القرطبىّ ١١٢٧ وانظر البحر المحيط ٢/٣٠٣

(٤) البحر المحيط ٢/٣١٥

(٥) تفسير الطّبرىّ ٣/٥٣

(٦) البحر المحيط ٢/٣١٥

(٧) البحر المحيط ٢/٣١٥

(٨) تفسير الطّبرىّ ٣/٥٤

لعلّكم تتفكّرون : عن ابن عباس يعنى فى زوال الدّنيا وفنائها وإقبال الآخـرة وبقائها[١] .

خرّج البخارىّ[٢] عن عبيد بن عمير قال : قال عمر بن الخطّاب يوماً لأصحاب رسول الله ﷺ : فيم ترون هذه الآية نزلت : ﴿ أيودّ أحدكم أن تكون له جنّةٌ من نخيلٍ وأعناب ﴾ ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فغضب عمر وقال : قولوا نعلم أو لا نعلم . فقال ابن عبّاس : فى نفسى منها شيءٌ يا أمير المؤمنين . قال : يا ابن أخى قُلْ ولا تَحْقِرْ نَفْسَك . قال ابن عبّاس : ضُرِبت مثلاً لعمل . قال عمر : أىّ عمل ؟ قال ابن عبّاس لعمل رجلٍ غنىّ يعمل بطاعة الله ثمّ بعث الله عزّ وجل الشّيطان له فعمل فى المعاصى[٣] حتّى أحرق عمله[٤] فى رواية : فإذا فنى عمره واقترب أجله ختم ذلك بعمل من أعمال الشّقاء . فرضى ذلك عمر . وروى ابن أبى مليكة أنّ عمر تلا هذه الآية وقال : هذا مَثَلٌ ضُرِب للإنسان يعمل عملاً صالحاً حتّى إذا كان عند آخر عمره ، أَحْوجَ ما يكون إليه ، عمل عمل السّوء[٥] وعن الحسن رضى الله عنه : هذا مَثَلٌ قلّ والله من يعقله من النّاس ، شيخٌ كبيرٌ ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنّته ، وإنّ أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدّنيا[٦] .

انطلاقاً من حديث صحيح البخارى نستطيع أن نفهم أنّنا بصدد مثلٍ ذى علاقةٍ من نوعٍ مّا بما سبق من أمثالٍ وآياتٍ كريمات ، كما أنّه يعالج أمراً غايةً فى الأهميّة والخطورة . إنّ المثل يريد أن يبيّن أنّ هذه الحياة الدّنيا هى حياة الحرث وبذر البذور ورعاية الغِراس ، وأنّ الحياة الأخرى هى حياة الحصاد وجنى الثّمار ونيل الجزاء . وإنّما تكون الثّمار من جنس البذور . وكى ينجو المحصول بإذن الله تعالى ويسلم من الآفات هو بحاجةٍ إلى العناية التّامّة حتّى آخر لحظة ، وكذلك حياة الإنسان ، ينبغى أن تكون حتّى آخر لحظة من حياة الإنسان ترجمةً حيّةً لتعاليم الإسلام صحيحةً طيّبةً بعون الله

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣/٥٤
(٢) انظر صحيح البخارى ٦/٣٩
(٣) رواية الصّحيح : بالمعاصى
(٤) رواية الصّحيح : أغرق أعماله .
(٥) تفسير القرطبىّ ١١٢٦ وانظر البحر المحيط ٢/٣١٣
(٦) الكشّاف ١/٢٩٩

وتوفيقه . وإنّ المثل فى الآية الكريمة يحذّر الإنسان من أن يفسد بالمعاصى فى آخر عمره أعماله الصّالحة السّابقة ويوم القيامة يصير — لا سمح الله تعالى — صفر اليدين من كلّ خير ، وذلك على غرار إحراق الإعصار الّذى فيه النّار الحديقة الغنّاء فغدت أثراً بعد عين . والآن مع كلّ جزئيّةٍ من جزئيات الآية الكريمة .

قال تعالى : ﴿ أيودّ أحدكم أن تكون له جنّةٌ من نخيلٍ وأعناب ﴾ ومن البيّن أنّ هذا الاستفهام لا يفهم فحواه إلاّ ابتداءً بالقول : ﴿ فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ .... ﴾ وكأنّ للاستفهام دوراً فى إثارة شوق المتأمّل لجزئيّات الآية الكريمة الأُوَل وتنمية اهتمامه بالجنّة ، وكلّما ازدادت متعلّقات تلك الجنّة ازداد الشّوق لذلك النّوع من الجنّات والتّشبّث بها ، فإذا ذكرت العاقبة الوخيمة لتلك الجنّة كان الإنكار من المسئول أن تكون تلك العاقبة من نصيب جنّته بقدر نموّ اهتمامه بها وشوقه إليها فى أثناء ذكر صفاتها ومتعلّقاتها . وعليه يكون الجواب على الاستفهام : لا يحبّ واحدٌ منا أن تكون له تلك العاقبة نصيب جنّته وحظّه منها .

وقد نصّت الآية الكريمة على أهمّ معلمين بارزين لتلك الجنّة الّتى غطّت خضرتها أرض الجنّة ، وهذان المعلمان البارزان هما النّخيل والأعناب . والمعروف أنّ النّخيل والأعناب فى المقام الأوّل من أهم معالم جنّات القرآن الكريم ، لكرم هذين النّوعين من الزّرع أساساً ، وبخاصّةٍ فى جزيرة العرب الّتى يعتمد سكّانها كثيراً على النّخلة طعاماً وأثاثاً ، فالمعروف أنّ كلّ أجزاء النّخلة نافع ، ولعلّ هذه الخاصّة الّتى تمتاز بها النّخلة هى الّتى أوحت للعربىّ بإطلاق هذا الاسم على هذه الشّجرة بالذّات ، هذا الاسم الّذى يوحى بكون النّخلة منخول الأشجار ومختارَها وصفوها . كما يعتمد سكّان الجزيرة العربيّة على الأعناب تفكّها ، وبهذا يتحقّق باجتماع ثمر النّخل والكرم الغذاءُ والفاكهة معاً .

ويحقق النّخل والكرم من حيث الشّكل أهمّ معالم الجنّة من بروز الملامح لارتفاع النّخلة وإمكان رؤية النّاظر لها من بعيد ، ومن خضرةٍ ، للكَرْم دورٌ كبيرٌ فى تحقّقها . وحينما يقارن من حيث الشّكل بين النّخل والكرم يبدو ارتفاع النّخل وانخفاض الكرم .

ولهذا كان للنّخل دورٌ فى تحديد معالم الجنّة وتبيين أبعادها لقيامه بما يشبه دور السّياج ، وإلى هذا الدّور للنّخل أشار مثل قوله تعالى[١] : ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنّتين من أعنابٍ وحففناهما بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعاً ﴾ .

وحينما نعلم أنّ بعض البيئات فى جزيرة العرب لا تجمع بين زراعة النّخيل والأعناب معاً كبيئة الطائف مثلاً الّتى يجود فيها العنب وحده ، وأنّ بعض البيئات يجود فيها النّوعان معًا ، كبيئة المدينة المنوّرة ، نستطيع أن نفهم من حديث آى الذّكر الحكيم عن النّخيل والأعناب فى أثناء الحديث عن جنّات الدّنيا ، أنّها تخاطب العرب ابتداءً باللّغة الّتى يفهمونها ، فكلّ العرب على علمٍ تامٍ بالنّخيل والأعناب وإن لم يزرعا فى بيئتهم . وفوق ذلك نحن نتبيّن فى الجمع بين النّخيل والأعناب فى هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات المدنيّة أنّها تخاطب المدنيّين بخاصّة ، باللّغة الّتى يفهمها جيّداً ، كبيرهم وصغيرهم على حدٍ سواء ، وكأنّ الخطاب هنا أو الحديث عن النّخل والكرم منتزعٌ من البيئة الّتى يعيش فيها كلّ فردٍ فى المدينة المنوّرة آنذاك .

وبعد الحديث عن أهمّ مَعْلَمَيْن بارزين للجنّة وهما النّخل والكرم ، يتمّ الحديث عن أهمّ سببٍ بفضل الله تعالى جعل الجنّة خضراء ، قابلةً لأن يترعرع فيها شجرٌ كالنّخيل يحتاج للعديد من السّنوات كى يثمر ، وفى خضرة النّخيل وبقائه دليلٌ على خضرة غير النّخيل من الشّجر والنّبات وبقائه ونمائه ، أمّا هذا السّبب فهو الماء المتدفّق فى أنحائها ، « وفى الحديث : خير المال عينٌ ساهرة لعينٍ نائمة ، أى عين ماءٍ تجرى ليلاً ونهاراً وصاحبها نائم . فجعل دوام جريها سهراً لها »[٢] والى هذا السّبب أشار قوله تعالى : ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ والمعنى تجرى من تحت أصول شجرها الأنهار . والملاحظ أنّنا بصدد جنّةٍ واحدة ، والملاحظ كذلك أنّنا بصدد أنهارٍ عدّة تتدفّق فى أنحائها . ويصحّ أن نظنّ أنّ هذه الجنّة من الاتّساع والكبر ما يسمح للعديد من الأنهار أو الجداول أن تتدفّق فى شتّى أنحائها . ونستطيع أن نفهم أنّ توفّر الماء لأىّ جنّةٍ من الجنّات من الأسباب الّتى تجعل صاحبها متشبثاً بها ، فكيف إذا كانت المياه تتدفّق فيها أنهاراً دون

---

(١) سورة الكهف ٣٢

(٢) لسان العرب « سهر » .

بذل شيءٍ من المجهود الّذى يبذل عادةً فى استخراج الماء من الآبار مثلاً . وهكذا يتبيّن أنّ تحقّق النّخيل والكرم فى الجنّة وهما من أهمّ معالمها وتحقّق الماء الغزير المتدفّق فيها من أهمّ الأسباب الّتى تدعو صاحب تلك الجنّة إلى التّعلّق بها والتّمسّك .

وبعد أن تحدّثت الآية الكريمة عن أهمّ الأسباب أو المعالم الظّاهرة والباطنة الّتى تدعو صاحب كلّ جنّة إلى العضّ عليها بالنّواجذ ، بيّنت سبباً آخر إضافيّاً ذا علاقة بالسّبب الأوّل وقوّةً له . أمّا هذا السّبب ذو العلاقة بالنّخيل والأعناب فإنه المتعلق بكون هذه الجنّة فيها من كل الثّمرات . فبالإضافة إلى النّخيل والأعناب توجد أشجارٌ أخرى ، وبالإضافة إلى ثمرات النّخيل والأعناب يوجد كلّ الثّمر ، فكلّ الشّجر يطرح أجود الثّمرات وأشهاها ، قال تعالى : ﴿ له فيها من كلّ الثّمرات ﴾ والملاحظ أنّ الجزئيّة الكريمة لا تستغنى عن الجار والمجرور « له » فكلّ ما فى الأشجار والكرم من ثمار هى لصاحب تلك الجنّة . ونستطيع أن نفهم أنّ الجارّ والمجرور هنا يتجاوز تقرير العلاقة الطبيعيّة بين الشّخص وما يملك إلى تقرير تلك المنزلة الرفيعة للجنّة فى نفس صاحبها ، لأنّها بفضل الله تعالى تحقّق له كلّ متطلّباته المادّيّة فى هذه الحياة .

والجزيئّة الكريمة التّالية تبيّن أنّ هذه المنزلة الرّفيعة السّامية للجنّة فى نفس صاحبها نتيجةٌ حتميّة ، قال تعالى : ﴿ وأصابه الكبر ﴾ والمعنى وقد أصابه الكبر . وانظر إلى جملة أصاب الّتى تذكّرنا بالقول من قبل : ﴿ فأصابه وابل ﴾ وبالقول : ﴿فإن لم يصبها وابلٌ فطلّ ﴾ بمعنى أنّ الكبر أصاب صاحب الجنّة و لم يخطئه . وهذا معناه أنّ تلك الجنّة أكلت شبابه وأنهكت قوّته واستنفدت طاقته ، وكأنّ صاحب الجنّة الشّيخ الكبير الفانى يجد فى تلك الجنّة شبابه أو يجد فيها عزاءً لما فقد من شباب فى استصلاحها والعناية بها ، وها هى ذى الجنّة تملأ عينه راحةً ونفسه هناءً وقلبه سعادة . إنّ الشّيخ الكبير قد أعطى الجنّة كلّ ما يملك وأعزّ ما يملك وهو يرجو منها ، بعد الله تعالى ، فى المقابل أن تعطيه ما أخذت فى هيئة تحقيق ما يحتاج هو وأهله .

ولكنّ هذا الشّيخ الكبير الفانى الّذى يعلّق ـــ بعد الله تعالى ـــ على الجنّة كلّ آماله العِراض لم يرزقه الله تعالى الذّرّيّة إلا بعد أن بلغ من الكبر عتيّا . إنّ أبناءه وبناتِه صغارٌ فى

السّنّ ، وبذلك اصطلح سببان ذاتيّان على حمل صاحب الجنّة على فرط التّشبّث بها ، وهذان السّببان هما كبر الشّيخ وضعف الذّرّية . ونستطيع أن ندرك شيئاً من الدّور البليغ للقول : « ضعفاء » حينما نتبيّن أنّ صفة الضّعف تكون وليدة صغر السّنّ ووليدة غير السّنّ من الأسباب من مرضٍ وزمانة[1] وما إلى ذلك .

إنّ كلّ الأسباب الخارجيّة والدّاخلية حاملةٌ لصاحب الجنّة على اعتماده الكلّيّ ــ بعد الله تعالى ــ عليها . وقد تبيّنّا العرض المعجز للعناصر بحيث إنّ هذه العناصر لا تؤدّى الغرض المنشود منها إلاّ وفق هذا التّرتيب . فثمّة تقديمٌ للمعالم الظّاهرة البارزة ابتداءً ، ثمّ ذكرٌ لأهم سببٍ وراء خضرة الجنّة ومعلميها البارزين من النّخيل والأعناب ، وهذا السَّبب هو الماء الكثير المتدفّق . ويأتى بعد ذلك ما يعتبر تكملةً للنّخيل والأعناب وهو كلّ الثّمرات . ثمّ يتمّ التّحوّل إلى السَّببين الذاتيّين للتّمسك بالجنة ، ويتقدّم سابقهما زمناً وهو كبر الشّيخ وأهمّهما ، فقد أكلت الجنّة شبابه وقوّته ، ويتأخر ما يعتبره ثمرة للشّيخ ومسبَّباً ــ بإرادة الله تعالى ــ عنه ، أعنى الذّرّيّة .

وبعد أن وصل الرّجاء بإرادة الله تعالى قمّته لتحقّق أسبابه ، شاءت إرادة الله تعالى أن يحدث عكس المرجوّ تماماً ، وقد عرفنا أنّ الآية الكريمة يراد بها التّنبيه إلى فقر الإنسان إلى عمله إذا انقطعت عنه الدّنيا . ونتحوّل الآن إلى الجزئية الكريمة الّتى تبيّن فى كلماتٍ قلائل ذهاب كلّ شيءٍ فى لمح البصر سدى . قال تعالى : ﴿ فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت ﴾ .

وأوّل ما يصادفنا بل يفاجئنا فاء العطف الدّالّ على التّرتيب مع التّعقيب : ﴿ فأصابها ﴾ وكأنّ منتهى الأمل الّذى يملك على صاحب الجنّة كلّ عواطفه ومشاعره وغاية الرّجاء الّذى يسيطر عليه فى خير الجنّة الّذى سيعود عليه ، قد انقلب رأساً على عقب فى لمح البصر فتحوّل الأمل حسرةً والرّجاء خيبة . ما أقرب المسافة بين غاية الأمل ومنتهى الحسرة ، فقد أصاب الجنّة فى لحظةٍ واحدةٍ إعصارٌ مدمّر فيه نارٌ محرقة ، فغدت الجنّة أثراً بعد عين ، ومن لطف الله تعالى بصاحب الجنّة أنّ الإعصار لم يصب شخصه ،

---

(١) الزّمانة بفتح الزّاى : العاهة وعدم بعض الأعضاء .

ولعلّه لم يصب ذرّيّته الضّعفاء بأذى ، فقد شملتهم رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيء ، وإنّ الّذى يذهب بنا إلى مثل هذ الرّأى أنّ الآية الكريمة تنزّل المخاطب منزلة صاحب الجنّة وتسأله أتودّ أن تكون لك جنّةٌ تلك صفتها وملابساتها ثمّ يكون مصيرها أن تغدو أمام عينيك أثراً بعد عين فى وقتٍ أنت أشدّ حاجةً لها من أىّ وقتٍ آخر ؟

والجواب بطبيعة الحال معروف ، لا يوّد أحدٌ ذلك .

وإنّ جملة أصابها الّتى مرّت بنا فى هذا القسم من السّورة أكثر من مرّة تعنى أنّ ذلك الإعصار أصابها بإرادة الله تعالى و لم يخطئها : ﴿ وما يعلم جنودَ ربّك إلاّ هو ﴾[١] .

وإنّ لفظة إعصار الّتى فهمنا من الأصل اللّغوىّ الّذى اشتقّت منه أنّها تعنى تلك الرّيح القويّة الّتى تدور حول نفسها مكوّنةً ما يشبه العمود الضارب فى تُخوم[٢] الأرض الصّاعد إلى عَنان[٣] السّماء . وهذه الرّيح الّتى تدور حول نفسها بقوّة تلفّ معها بإرادة الله تعالى ما يمكنها لفّه ، وتقلع ما يمكنها قلعه ، وتحمل معها إلى عنان السّماء ما أمكنها لفّه وقلعه وحمله ، ولو كان ذلك نخيل تلك الجنّة وأعنابها فى البيئة البرّيّة ، ولو كان ذلك سمك البحار والمحيطات فى البيئة البحرية ، بحيث إنّ الرّيح حينما تسكن والإعصار حينما يخفّ أو يخفت ، تهوى فى مكانٍ سحيق تلك الأشياء الّتى حمل الإعصار ، ولو كانت تلك الأشياء فى هيئة تلك الثّلاّجة الّتى قذف بها الإعصار الّذى ضرب مدينة دارون فى شمالىّ أستراليا ودمّرها ، فى هيئة تلك الثّلاّجة الّتى قذف بها الإعصار فوق أحد أبراج المياه فى المدينة ، ولو كانت تلك الأشياء فى هيئة الأسماك الّتى تهوى من السّماء ، فإذا صادف ذلك وقت نزول الأمطار ظنّ بعض النّاس أنّ السّماء تمطر سمكاً ! إنّ بعض المفكّرين الّذين لم يعيشوا فى أراضى الأعاصير يرفضون ، كأمير البيان العربىّ أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، هذا القول : إن السّماء تمطر سمكاً ، لأنّ هذا القول لا يتصوّره عقلٌ ولا يقبله وإن كان ناقل القول شاهد عيانٍ ثقة كحُرَيثٍ الّذى نقل عنه الجاحظ هذه التّجربة

---

(١) سورة المدّثّر ٣١

(٢) التّخوم بضمّ التّاء بمعنى الحدود والمفرد تخم بضمّ التّاء وفتحها .

(٣) العَنان بفتح العين السّحاب وعَنان السّماء ما ارتفع منها وما بدا لك منها إذا نظرتها .

والّتى رفض الجاحظ قبولها ، وكيف لا يرفض الجاحظ هذه الرّواية وهو الّذى يخضع كلّ ما يقال لمحكّ العقل والتّجربة ، وإنّ عقله ليرفض ذلك القول ، وإنّ هذه التّجربة لم يمرّ بها ثمّ إنّها غير قابلةٍ لممارستها ، وكيف لا يرفض الجاحظ هذه الرّواية وقد زعم حُرَيثٌ أن السّماء لم تمطر سمكاً فحسب ، بل أمطرت الشّبابيط[١] السّمان الخِدال ، أى الممتلئة الأعضاء لحماً فى رقّة عظم ، فطبخوا واشتَوَوْا وملّحوا وادّخروا ![٢] .

لقد أثبت العلم الحديث أنّ للإعصار من القوّة ما يجعله قادراً على حمل الأشياء الّتى يلفّها ويعصرها إلى عنان السّماء بما فى ذلك الأسماك وفيها الشّبابيط ، وعليه فالقول : أمطرت السّماء السّمك والضّفادع والشّبابيط صحيح[٣] .

ومن البيّن أنّنا فى الآية الكريمة بصدد إعصار يزمجر فى بيئةٍ بريّة ، وها هو ذا بإرادة الله تعالى يصيب الجنّة الّتى تلك صفتها ولا يخطئها ، ونستطيع أن نفهم أنّ ذلك الإعصار قد لفّ معه بإرادة الله تعالى واقتلع ما أراد الله تعالى له من شجر تلك الجنّة وزرعها . وإذا كان من المتوقّع أن يبقى وراء ذلك الإعصار شيءٌ من زرعها إن لم يكن من نخلها وشجرها ، إذ المعروف مثلاً أنّ الحشائش تنحنى فى العادة حينما تمرّ الأعاصير فإذا مضت الأعاصير قامت الحشائش على سوقها ، إذا كان من المتوقّع أن يبقى شيءٌ من زرع الجنّة ونبتها فإنّ هذا الّذى بقى من الجنّة بعد الأعاصير من نصيب شيءٍ آخر لازم الأعاصير وأعقبها ، أمّا هذا الشّىء الآخر فهو النّار الّتى كانت فى ذلك الإعصار ، فقد كان الإعصار ناريّاً وليس مائيّاً . قال تعالى : ﴿ فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت ﴾ .

---

(١) الشّبابيط جمع الشّبّوط بفتح الشّين وتشديد الباء المضمومة ، والشّبُّوط بفتح الشّين وضمّ الباء المفردة ، والشّبُّوط ، بضمّ الشين وتشديد الباء المضمومة : سمك نهرىّ صغير الرّأس عريض الوسط .

(٢) انظر الحيوان للجاحظ ١٤٩/١ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٤٢

(٣) من آخر ما قرأت فى هذا الشّأن فى أثناء كتابة هذه الدّراسة ما جاء فى ص ٥٥ من مجلّة الرّابطة عدد ٢٦٢ السّنة ٢٥ ــ جمادى الأولى ــ ١٤٠٧ هـ يناير ، ١٩٨٧ م وما جاء فى الصّفحة السّابعة من جريدة عكاظ عدد ٧٥٠٨ السّبت ١٧ جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ ١٧ يناير ١٩٨٧ م عن مثلّث برمودا الّذى يقع فى مسارات الأعاصير المدّمرة الّتى تجتاح أقصى شرق الولايات المتّحدة وهو مثلّث برىء من الخرافات المنسوجة حوله .

ونستطيع أن نفهم الجزئيّة الكريمة على هذا النّحو : فأصاب الجنّة إعصارٌ فيه نارٌ أحرقها فاحترقت . وهكذا جمع الإعصار بإرادة الله تعالى بين الدمّار ابتداءً والإحراق انتهاءً ، وبذلك غدت الجنّة فعلاً أثراً بعد عين ، لأنّ ما بقى منها بعد التّدمير أتى عليه التّحريق . وبنصّ الآية الكريمة نستطيع أن نفهم أنّ من الأعاصير ما كان ناريّاً ، بمعنى أنّ النّار تشتعل بسببه ، وبخاصّةٍ فى الغابات ، وإن كانت تلك الغابات من الخضرة وتدفّق الأنهار بها فى مثل حال الجنّة الّتى وصفتها الآية الكريمة . والحقيقة أنّ حديث الآية الكريمة عن هذا النّوع من الأعاصير النّاريّة ممّا يتمشّى مع ما استقرّ فى نفوس العرب من اشتداد الحرارة صيفاً فى جزيرة العرب وبخاصّةٍ فى بيئةٍ زراعيّة كبيئة المدينة المنوّرة الّتى تشتدّ فيها حرارة الرّيح السّموم صيفاً وبخاصّةٍ حينما تعوى فوق الحِرار وتزمجر فى الصّحارى . إنّ الحرارة شديدة الارتفاع حقًّا ، بحيث إنّ من تمثّل فى مثل تلك الأجواء إعصاراً مزمجراً يلفّ كلّ ما صادفه لا يستبعد اقتران النّار به الّتى تتولّد بإرادة الله تعالى بسبب احتكاك العناصر القابلة للاشتعال ببعضها فى تلك الدّرجة العالية من الحرارة . إنّ الآية الكريمة تثبت هذا النّوع من الأعاصير النّاريّة الّتى يتهيّأ دائماً سكّان تلك المناطق الحارّة وقت اشتداد القيظ لتمثّلها وتوقع حدوثها . ولعلّ الآية الكريمة تطرح الجواب الصّحيح على التّساؤلات الّتى يلقيها النّاس حينما تشتعل النّيران فجأةً فى الغابات والأحراش ولا يكون ذلك بفعل فاعلٍ من البشر . الأعاصير ، وهى من جند الله تعالى الّتى لا يعلمها إلاّ هو جلّ وعلا ، ممّا يقوم بإرادة الله تعالى بإيجاد الحرائق وإشعال النّيران . وكما تشتعل بإرادته جلّ وعلا تنطفئ بإرادته جلّ وعلا .

إن هذا النّوع من الأعاصير النّاريّة هو الّذى اجتاح الجنّة الّتى تلك نعوتها ، وما كان من الجنّة رغم خضرتها وتدفّق الأنهار فيها إلاّ أن استجابت بإرادة الله تعالى للنّار وتفاعلت معها وكأنّها هى الّتى احترقت بذاتها وبمحض إرادتها وهى الّتى لا تملك سوى الإذعان للمشيئة والخضوع للإرادة .

وفى الجزئيّة الأخيرة : ﴿ كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون ﴾ تبيينٌ للعبرة من سرد القصّة وتصوير حال صاحب الجنّة وقد غدا من أمله وحيداً بعد أن أخلفه

الرّجاء . إنّ فى مثل هذه الطّريقة من التّبيين والتّوضيح يبين لنا ربّ العزّة آياته البيّنات لعلّنا نتفكر فى حالنا ومآلنا ، ونستعمل عقولنا استعمالاً صحيحاً . إنّه لا يليق بأىّ شخصٍ من الله تعالى عليه بنعمة العقل أن يبيع آخرته بدنياه ، وأن يؤثر العاجلة الفانية على الآجلة الخالدة ، وأن يكون كالمرأة الحمقاء الخرقاء الّتى نقضت غزلها من بعد قوّةٍ أنكاثا . والحثّ على التّفكر واحدٌ من المواضع الّتى تزيد على الأربعين والّتى أشار إليها الشّهيد حسن البنّا ، دليلاً على احتفاء الإسلام بالعقل وحثّه على التّفكّر والتّدبّر[1] إنّ هذه الآية الكريمة واحدةٌ من تلك المواضع الّتى تزيد على الأربعين فى القرآن الكريم لعلّنا نحن المسلمين نعقل ونتفكّر ونتدبّر . وإنّه لمن المعروف أنّ احتفاء الإسلام بالعقل كبير ، وإنّه لمن المعروف أنّ العقل فى الإسلام واحدٌ من المصادر المهمّة للمعرفة شريطة استعماله استعمالاً صحيحاً وعدم الزّجّ به فى الميادين الّتى لا يعمل فيها والّتى لم يخلق من أجلها كعالم الغيب الّذى تتقدّم فيه الرّوح على العقل تقدّمه عليها فى عالم الشّهادة . نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهمنا رشدنا إنّه سميعٌ مجيب .

وحينما نتبيّن أنّ التّفكّر يرتبط بالعواقب فى المقام الأوّل ، وحينما نتبيّن أنّ هذه الجزئيّة الكريمة الّتى تحثّ على التّفكّر تتوّج بها المجموعة من الآيات الكريمات الّتى تُعْنَى بعواقب الإنفاق وتهتمّ بما يتلو التّصدّق ويتبعه بألاّ يكون مَنّاً ولا أذى ، نستطيع فى ضوء ذلك أن نتبيّن التّجانس فى الاتّجاه بين الآيات الكريمة وبين هذه الجزئيّة الكريمة الأخيرة التّعقيبيّة : ﴿ كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون ﴾ فعلى كلّ مسلم أن يعمل مستعيناً بالله تعالى على حسن العاقبة ويكون ذلك بحسن العمل فى الآخرة ، وذلك على غرار حسن العمل فى الأولى فى بداية العمر ومستهلّ الحياة . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الآيــة رقــم (٢٦٧)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا أنفقوا من طيّبات ما كسبتم وممّا أخرجنا لكم من

---

(١) انظر مثلاً الله فى العقيدة الإسلاميّة للشّهيد حسن البنا ص ١٢

الأرض ولا تيمّموا الخبيثَ منه تنفقون ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه واعلموا أنّ الله غنيٌّ حميد ﴾ .

يا أيها الّذين آمنوا انفقوا : هذا خطابٌ لجميع أمّة محمّد ﷺ واختلف العلماء فى المعنى المراد بالإنفاق هنا ، فقال علىّ بن أبى طالب وعبيدة السّلمانىّ وابن سيرين : هى الزّكاة المفروضة . نهى النّاس عن إنفاق الرّدىء فيها بدل الجيّد . قال ابن عطيّة : والظّاهر من قول البراء بن عازب والحسن وقتادة أنّ الآية فى التّطوّع ، ندبوا إلى ألاّ يتطوّعوا إلاّ بمختارٍ جيّد . والآية تعمّ الوجهين[١] ويقول الطّبرىّ[٢] « : ﴿ يا أيها الّذين آمنوا ﴾ : صدّقوا بالله ورسوله وآى كتابه . ويعنى بقوله : أنفقوا : زكّوا وتصدّقوا » .

من طيبّات : جمهور المتأوّلين قالوا : معنى من طيّبات من جيّد ومختار ما كسبتم . وقال ابن زيد : من حلال ما كسبتم[٣] قال ابن عبّاس : أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ونهاهم عن التّصدّق برذالة المال ودنيئه وهو خبيثه فإنّ الله طيب لا يقبل إلاّ طيبّاً[٤] ويقول الطّبرىّ[٥] : « ويعنى بالطّيّبات الجياد » .

ما كسبتم : ما فى ما كسبتم موصولة والعائد محذوف . وجوّز أن تكون مصدريّة فيحتاج أن يكون المصدر مؤوّلاً بالمفعول تقديره من طيّبات كسبكم أى مكسوبكم[٦] وقال الرّاغب : تخصيص المكتسب دون الموروث لأنّ الإنسان بما يكتسبه أضنّ به ممّا يرثه فإذن الموروث معقولٌ من فحواه[٧] ويقول الطّبرىّ[٨] : « يعنى بذلك جلّ ثناؤه زكّوا من طيّب ما كسبتم بتصرّفكم إمّا بتجارةٍ وإمّا بصناعةٍ من الذّهب والفضّة » .

وممّا أخرجنا لكم : ومن طيّبات ما أخرجنا ، فحذف لدلالة ما قبله وما بعده عليه . وكرّر حرف الجرّ على سبيل التّوكيد أو إشعاراً بتقدير عامل آخر حتّى يكون الأمر

---

(١) تفسير القرطبىّ ١١٢٨ وانظر البحر المحيط ٢/٣١٦ وتفسير ابن كثير ١/٣٢٠.
(٢) تفسير الطّبرىّ ٣/٥٤
(٣) تفسير القرطبىّ ١١٢٩ والبحر المحيط ٢/٣١٦
(٤) تفسير ابن كثير ١/٣٢٠ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣/٥٤
(٥) تفسير الطّبرىّ ٣/٥٤
(٦) البحر المحيط ٢/٣١٧
(٧) البحر المحيط ٢/٣١٦
(٨) تفسير الطّبرىّ ٣/٥٤

مرّتين[١] .

من الأرض : « يعنى النّبات والمعادن والرِّكاز . وهذه أبوابٌ ثلاثةٌ تضمنتها هذه الآية ... عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنّه قال ..... وفى الرِّكاز الخُمُس . قال علماؤنا : لمّا قال ﷺ : وفى الرّكاز الخُمُس ، دلّ على أنّ الحكم فى المعادن غير الحكم فى الرّكاز ، لأنّه ﷺ قد فَصَلَ بين المعادن والرِّكاز بالواو الفاصلة[٢] ولو كان الحكم فيهما سواءً لقال : والمعدن جُبارٌ وفيه الخُمُس . فلمّا قال : وفى الركاز الخُمُس عُلِمَ أنّ حكم الرِّكاز غير حكم المعدن فيما يؤخذ منه . والله أعلم .

والرّكاز أصله فى اللّغة ما ارتكز بالأرض من الذّهب والفضّة والجواهر . وهو عند سائر الفقهاء كذلك لأنّهم يقولون فى النّدْرة[٣] الّتى توجد فى المعدن مرتكزةً بالأرض لا تُنال بعملٍ ولا بسعى ولا نَصَب فيها الخُمُس لأنّها ركاز .... عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرّكاز قال : الذّهب الّذى خَلَق الله فى الأرض يوم خلق السّماواتِ والأرض[٤] ويقول أبو حيان[٥] : ﴿ ومما أخرجنا لكم من الأرض ﴾ يعنى من أنواع الحبوب والثّمار والمعادن والرّكاز . وفى قوله : ﴿ أخرجنا لكم ﴾ امتنانٌ وتنبيهٌ على الإحسان التّامّ كقوله :﴿ هو الّذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ﴾ والمراد : من طيّبات ما أخرجنا لدلالة ما قبله وما بعده عليه » ويقول الطّبرىّ[٦] : « يعنى بذلك جلّ ثناؤه وأنفقوا أيضاً ممّا أخرجنا لكم من الأرض فتصدّقوا وزكّوا من النّخل والكرم والحنطة والشّعير وما أوجبت فيه الصّدقة من نبات الأرض » .

ولا تيمّموا : تيمّموا معناه تقصدوا[٧] وقال الخليل : أمّمته قصدت أمامه .

---

(١) البحر المحيط ٢/٣١٧ وانظر الكشاف ١/٢٩٩

(٢) جاء فى الحديث : والمَعْدِن جُبارٌ وفى الرِّكاز الخُمُس . والمَعْدِن هنا بمعنى المنجم إذا انهار على من يحفره فقتله . وجبار بمعنى هَدَر أى دَمُه هدر .

(٣) النَّدْرة بفتحٍ فسكون : القطعة من الذّهب والفضّة توجد فى المعدن .

(٤) تفسير القرطبىّ ١١٢٢٩ ، ١١٣٠ (٥) البحر المحيط ٢/٣١٧

(٦) تفسير الطّبرىّ ٣/٥٤

(٧) تفسير القرطبىّ ١١٣٣ والجلالين والكشاف ١/٢٩٩ والبحر المحيط ٢/٣١٥ وتفسير ابن كثير ١/٣٢٠ وتفسير الطّبرىّ ٣/٥٥

ويمّمته قصدته من أىّ جهةٍ كانت[١] .

الخبيث : الدّون والرّدىء[٢] وهو ضدّ الطّيّب اسم فاعل من خبث[٣] والخبيث الرّدىء غير الجيّد[٤] .

منه تنفقون : الضّمير فى منه عائدٌ على الخبيث[٥] قال الجرجانىّ فى كتاب نظم القرآن ، قال فريقٌ من النّاس : إنّ الكلام تمّ فى قوله تعالى : ﴿ الخبيث ﴾ . ثمّ ابتدأ خبراً آخر فى وصف الخبيث فقال : منه تنفقون[٦] .

ولستم بآخذيه : أى لستم بآخذيه فى ديونكم وحقوقكم من النّاس[٧] .

إلاّ أن تغمضوا فيه : غَمَضَ عينه وأَغْمَضَها وضع إحدى جَفْنَتيه على الأُخْرَى ثمّ يُسْتعار للتّغافُل والتّساهل[٨] أى إلاّ أن تتساهلوا فى ذلك وتتركوا من حقوقكم وتكرهونه ولا ترضونه . أى فلا تفعلوا مع الله ما لا ترضونه لأنفسكم ، قال معناه البراء ابن عازب وابن عبّاس والضّحّاك[٩] وقوله تعالى : إلاّ أن تغمضوا فيه ، كذا قراءة الجمهور ، مِنْ أغمض الرّجل فى أمر كذا إذا تساهل فيه ورضى ببعض حقّه وتجاوز . وقد يحتمل أن يكون منتزعاً إمّا من تغميض العين ، لأنّ الّذى يريد الصّبر على مكروه يغمض عينيه ، وإمّا من قول العرب : أغمض الرّجل إذا أتى غامضاً من الأمر ، كما نقول : أَعْمَنَ أى أتى عمان ، وأعرق أى أتى العراق ، وأنجد وأغور أى أتى نجداً والغور الّذى هو تهامة . أى فهو يطلب التّأويل على أخذه[١٠] .

إلاّ أن تغمضوا فيه : بالتّساهل وغضّ البصر[١١] وإلاّ بأن تتسامحوا فى أخذه

---

(١) البحر المحيط ٢/٣١٥
(٢) تفسير القرطبى ١١٣٤
(٣) البحر المحيط ٢/٣١٥
(٤) تفسير الطّبرىّ ٣/٥٥
(٥) تفسير القرطبىّ ١١٣٤
(٦) تفسير القرطبىّ ١١٣٤
(٧) تفسير القرطبىّ ١١٣٤
(٨) مفردات الرّاغب ص ٣٦٥
(٩) تفسير القرطبىّ ١١٣٤
(١٠) تفسير القرطبى ١١٣٥ وانظر البحر المحيط ٢/٣١٥
(١١) الجلالين .

وتترخّصوا فيه من قولك : أغمض فلانٌ عن بعض حقّه إذا غضّ بصره . ويقال للبائع أَغْمِض أى لا تستقص كأنّك لا تبصر . وقال الطّرمّاح :

لم يفتنا بالوتر قومٌ وللضيّـ ـــم رجـالٌ يرضـون بالإغماض(١)

وقرأ الجمهور تغمضوا من أغمض وجعلوه ممّا حذف مفعوله أى تغمضوا أبصاركم أو بصائركم . وجوّزوا أن يكون لازماً مثل أغضى عن كذا(٢) ويقول ابن كثير(٣) : « أى لو أعطيتموه ما أخذتموه إلاّ أن تتغاضوا فيه » ويقول الّطبرىّ(٤) : « إلاّ أن تتجافوا فى أخذكم إيّاه عن بعض الواجب لكم من حقّكم فترخّصوا فيه لأنفسكم » .

واعلموا أنّ الله غنىّ حميد : محمودٌ فى كلّ حال(٥) ففعيل هنا بمعنى مفعول(٦) محمود فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إلٰه إلاّ هو ولا ربّ سواه(٧) .

سـبب النّزول :

خرّج التّرمذىّ عن البراء بن عازب : ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون قال : نزلت فينا معشر الأنصار كنّا أصحاب نخل قال : فكان الرّجل يأتى من نخله على قدر كثرته وقلّته وكان الرّجل يأتى بالقُنوِ والقنوين فيعلّقه فى المسجد ، وكان أهل الصّفّة ليس لهم طعام ، فكان أحدهم إذا جاع أتى القُنو فيضربه بعصاه فيسقط من البُسْر والتّمر فيأكل . وكان ناسٌ ممّن لا يرغب فى الخير يأتى بالقنو فيه الشّيص والحشف(٨) وبالقنو قد انكسر فيعلّقه فى المسجد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الّذين آمنوا أنفقوا من طيّبات ما كسبتم وممّا أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه ﴾ قال : ولو أنّ أحدكم أهدى إليه مثل ما أعطاه لم يأخذه إلاّ على إغماضٍ

---

(١) الكشّاف ١/٢٩٩ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣/٥٦
(٢) البحر المحيط ٢/٣١٨ (٣) تفسير ابن كثير ١/٣٢٠
(٤) تفسير الطّبرىّ ٣/٥٦
(٥) تفسير القرطبىّ ١١٣٦ والجلالين والبحر المحيط ٢/٣١٩
(٦) البحر المحيط ٢/٣١٥ (٧) تفسير ابن كثير ١/٣٢١
(٨) الشّيص بالكسر : أردأ التّمر الواحدة بهاء . والحشف بفتح الحاء والشّين : اليابس الفاسد من التّمر قاموس .

وحياء قال : فكنّا بعد ذلك يأتى الرّجل بصالح ما عنده . قال : هذا حديث حسنٌ غريب صحيح[١] .

حديث الآيات الكريمات السّابقات فى مجموعه عمّا يهدف إليه الإنفاق من وجوب كونه فى سبيل الله تعالى وعمّا يتبعه ويعقبه من نفى المنّ والأذى عموماً فينبغى تجنّبه وبخاصّةٍ فى آخر العمر . أما وقد نال ما يتبع الإنفاق ويعقبه حظّه موفوراً ، فإنّ السّياق متمثّلاً فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها يتحوّل إلى ما يسبق الإنفاق وإلى مادّته أعنى المال الّذى ينبغى أن يكون طيّباً فإنّ الله تعالى طيّبٌ ولا يقبل إلاّ طيّباً ، فهذا المال ينبغى أن يكون من كسبٍ حلال وأن يكون من النّوع الجيّد غير الرّدىء ، كما ترشد الآية الكريمة إلى حقّ الله تعالى ممّا تخرج الأرض من حبوبٍ وثمارٍ ومعدنٍ وركاز . فمع كلّ جزئيّةٍ على حدة .

تخاطب الآية الكريمة ابتداءً المؤمنين باعتبارهم يمثّلون الثّمرة اليانعة لمنهج القرآن الكريم تربويّاً فتناديهم بأهمّ صفاتهم وهى صفة الإيمان : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ﴾ والمعنى : يا أيّها الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً وبمحمّدٍ ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم دستورا ، أنفقوا من طيّبات ما كسبتم ، تصدّقوا وزكّوا وأنفقوا فى سبيل الله تعالى من جياد ما حصلتم عليه — بعونٍ من الله تعالى وفضل — بكدحكم وعرق جبينكم من المال الحلال غير الحرام الطّيّب غير الخبيث فإنّ الله سبحانه وتعالى طيّب ولا يقبل إلاّ طيّباً وقد قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطّيّب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتّقوا الله يا أولى الألباب لعلّكم تفلحون ﴾ .

وعلى عادة القرآن الكريم فى أسلوبه المعجز الّذى يضيف دائماً الجديد من المعانى تأمر الآية الكريمة الّذين آمنوا بالإنفاق من طيّبات ما أخرج الله سبحانه وتعالى لهم من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن والرّكاز ، بعد أن أمرتهم بالإنفاق من طيّبات ما كسبوا . قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا أنفقوا من طيّبات ما كسبتم وممّا أخرجنا لكم من الأرض ﴾ وإذا كنا نستطيع أن نفهم من الكسب بأنّه فى المقام الأوّل المال الّذى نحصل

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣/٥٥

عليه مباشرةً من العمل والكدح ، ولذلك المال المكتسب منزلةٌ خاصّة ، وفى الأمر بالإنفاق منه أمرٌ ضمنىٌّ بالإنفاق من المال الّذى تقلّ منزلته فى النّفس عن المال المكتسب كالمال الموروث مثلاً ، فإنّا نستطيع أن نفهم من الّذى أخرجته الأرض بإرادة الله تعالى بأنّه المال الّذى نحصل عليه بطريق غير مباشر حينما يتصرّف المرء ببيع ما أخرجت الأرض من ثمارٍ ومعادن . وإذا كنّا نستطيع أن نفهم من الأمر بالإنفاق من المال المكتسب الإنفاق تطوّعاً باعتبار الزّكاة أمراً مفروغا منه لأنّها أحد أركان الإسلام ، فإنّا نستطيع أن نفهم الشّىء نفسه بشأن ما أخرجت الأرض . إنّ زكاة الحبوب والنّقدين معروفة ، وإنّ فى الرّكاز الخمس . إنّ الآية الكريمة فى أمرها تشمل صدقة التّطوّع فى المقام الأوّل ، فالأمر على النّدب ، وفى شمول الصّدقة شمولٌ للزّكاة من باب الأَوْلى والأحْرى .

وانظر إلى الجارّ والمجرور « لكم » الّذى لا تستغنى عنه الآية الكريمة : ﴿ وممّا أخرجنا لكم من الأرض ﴾ إنّ كنوز الأرض من ذهبٍ وفضّة وزيت ونُحاسٍ وصُفرٍ وقصديرٍ ورَصاصٍ وما إلى ذلك إنّما أخرجتها العناية الإلٰهيّة الّتى أوجدت الإنسان من العدم وآتته رشده فأحسن الانتفاع من نعم الله تعالى عليه لاستخراج كنوز الأرض . وإنّ كنوز الأرض إنّما أوجدها الله تعالى الّذى أوجد الأرض والسّماء والّذى خلقهما ومن فيهما من العدم وقد قال عزّ من قائل[١] . ﴿ قل أئنّكم لتكفرون بالّذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ، ذلك ربّ العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيّامٍ سواءً للسّائلين . ثم استوى إلى السّماء وهى دُخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهنّ سبع سماواتٍ فى يومين وأوحى فى كلّ سماءٍ أمرها وزيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيحَ وحِفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

وإنّ التّنبيه الكريم فى الآية الكريمة إلى انّ الله سبحانه وتعالى هو المُخْرِج الحقيقىّ ما فى الأرض من أجلنا ليذكّرنا بمثل قوله تعالى[٢] : ﴿ وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه ﴾ وقوله تعالى[٣] : ﴿ وآتوهم من مال الله الّذى آتاكم ﴾ وقوله تعالى[٤] :

---

(١) سورة فصّلت ٩ — ١٢
(٢) سورة الحديد ٤٧
(٣) سورة النّور ٣٣
(٤) سورة سبأ ٣٩

﴿ وما أنفقتم من شيءٍ فهو يُخْلِفُهُ وهو خير الرّازقين ﴾ .

وإذا كان المال الطّيّب ينصرف إلى المال الحلال غير الحرام فى المقام الأوّل فإنّ النّعت بالطيّب يتسع كى يشمل الجيّد غير الرّدىء ، وهذا ما نبّهت عليه الجزئيّة التّالية فى نهيها ـــ بعد الأمر فى صدر الآية الكريمة ـــ عن إنفاق الخبيث . قال تعالى : ﴿ ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه ﴾ .

على أنّ أوّل ما يلفت الانتباه بشأن النّهى فى هذه الجزئيّة الكريمة عقب الأمر فى الجزئيّة الكريمة السّابقة استعمال لفظة الخبيث هنا مقابل الطّيّب هنالك . إنّ هنا نهياً عن إنفاق الخبيث وإنّ هناك أمراً بإنفاق الطّيّب . وإذا كان لفظ الطّيّب هنالك يعنى الحلال فى المقام الأوّل ويشمل وراء ذلك الجيّد دون الرّدىء ، فإنّ لفظ الخبيث هنا يعنى الرّدىء فى المقام الأوّل ويشمل وراء ذلك الحرام دون الحلال . وبهذا يتبيّن أنّ ثمّة توازناً بين الجزئيّتين الكريمتين فى استعمال اللّفظتين اللّتين تؤدّيان ابتداءً وبدلالة الالتزام بعد ذلك معنيين متّحدين ويكاد ينحصر الاختلاف بين اللّفظين فى كون ما تفيده أولاهما بالأصالة تفيده أخراهما بدلالة الالتزام وما تفيده أخراهما بالأصالة تفيده أولاهما بدلالة الالتزام .

إنّ الجزئيّة الكريمة تنهى المؤمنين عن أن يقصدوا عمداً إلى الرّدىء من أموالهم الّتى كسبوها كى ينفقوا منها فى سبيل الله تعالى : ﴿ ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون ﴾ وبذلك تأخذ الجزئيّة الكريمة بسببٍ من قوله تعالى[1] : ﴿ لن تنالوا البِرَّ حتّى تنفقوا ممّا تُحِبُّون . وما تنفقوا من شيءٍ فإنّ الله به عليم ﴾ ووراء ذلك تضرب الجزئيّة الكريمة فى القول : ﴿ ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه ﴾ على وتر الإنسانيّة الحنون . حقًّا إنّ المنفق ماله فى سبيل الله تعالى إنّما يقرض الله الغنىّ الحميد قرضاً حسناً ، ولكن من الّذى ينتفع بهذا الإنفاق عاجلاً وآجلاً ؟ إنّ المنتفع فى العاجل المنفق عليه وإنّ المنتفع فى الآجل المنفق ، وبناءً على ذلك فالزّكاة والصّدقة والإنفاق فى سبيل الله تعالى عموماً عبادةٌ يتّجه بها المنفق ماله فى سبيل الله تعالى إلى بارئه جلّ وعلا مروراً بأخيه الإنسان . إنّ الجزئيّة

---

(١) سورة آل عمران ٩٢

الكريمة تُعْنَى بهذا الإنسان المنفَق عليه وتنبّه المنفق ماله فى سبيل الله تعالى إلى أنّ الثّواب بقدر الإنفاق كمًّا وكيفًا ، وإلى أنّ المنفق عليه أخٌ فى الإسلام وفى الإنسانيّة للمنفق ، له نفسٌ كنفسه وروحٌ كروحه . وكيف لا يكون الأمر كذلك وإنّ الإيمان شطران شكرٌ وصبر ، وها هو ذا الغنىّ يبتليه الله تعالى بالنّعمة فيشكر بمعرفة حقّ الله تعالى فيها ، وها هو ذا الفقير يبتليه الله تعالى بالفقر والحاجة فيصبر ، والشّكور الصّبور بمنّ الله تعالى وفضله فى الجنّة .

إنّ الجزئيّة الكريمة فى ضربها على وتر الإنسانية الحنون كأنّها تقول للمنفق : اعلم أيّها المنفق أنّ للمنفق عليه نفساً كنفسك تجوع وتشبع تعرى وتكتسى تظمأ وترتوى ، تضحى وتستدفئ ، فعليك أن تنزّل نفسه منزلة نفسك ونفسك منزلة نفسه فما ترتضيه لنفسك ترتضيه لمن وفّقك الله تعالى للإنفاق عليه . إنّ نفسك ترضى كلّ الرّضا حتّى تُعْطى ما تحبّ ، وإنّ نفسك لا تَرْضَى حينما لا تُعْطَى ما تحبّ أو حينما تُعْطى ما لا تحبّ ، ولو فُرِض أنّك أُعْطِيت ما لا تحبّ ، فإن كنت فى موطن قوّة أعلنت رفضك على رءوس الأشهاد ، وإن كنت فى غير موطن قوّة أو غلبك الحياء أخذت ما أُعْطِيت على مضض ، وأغمضت عينيك كأنّك لا ترى ، وتغابيت وما بك غباء ، وتغافلت وما بك غفلة .

وانظُر إلى الحال الواحدة الّتى تقرّرها الجزئية الكريمة وهى حال الآخذ المغمض عينيه ، من بين الحالات المتعدّدة الّتى يصحّ أن يكون فيها الآخذ . ويتّضح ذلك من الوقوف على معنى الإغماض بمعنى وضع جَفْن كلِّ عين على الآخر ، والملاحظ ابتداءً أنّنا بصدد شخصٍ آخذٍ لا أقول مستيقظاً بل يقظاً ، وذلك معناه أنّه يبذل مجهوداً فى سبيل نزول جفن العين الأعلى على الأسفل تظاهراً بالنّوم وادّعاءً للغفلة وليس ثمّة نـومٌ ولا غفلة ، وقديماً عبّر أجمل تعبيرٍ وأبلغه عن هذه الغمليّة العجيبة الّتى يقوم به الواحد منا دون تفكير بل دون فطنة أمير البيان العربىّ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى أثناء حديثه عن قصّة عبد الله بن سوّار قاضى البصرة وإلحاح الذّباب على وجهه وعلى عينيه ، وممّا قال رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[1] : « فلمّا طال ذلك عليه من الذّباب وشغله وأوجَعه

---

(١) الحيوان ٣/٣٤٤

وأحرقه ، وقصد إلى مكانٍ لا يحتمل التّغافل ، أطبَقَ جَفْنَه الأعلى على جَفْنه الأسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق والفتح ، فتنحّى ريثما سكن جَفْنُه ، ثمّ عاد إلى مؤقه بأشدَّ من مرّته الأولى فغمس خُرْطومه فى مكانٍ كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله له أضعف ،وعجزه عن الصّبر فى الثّانية أقوى ، فحرّك أجفانه وزاد فى شدّةِ الحركة وفى فتح العين ، وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحّى عنه بقدر ما سكنَتْ حركته ثمّ عاد إلى موضعه ، فما زال يلحُّ عليه حتّى استفرغ صبره وبلغ مجهوده . فلم يجد بدّاً من أن يذبّ عن عينيه بيده ففعل » .

إنّ عمليّة الإطباق تعنى إطباق الجفن الأعلى على الأسفل ، وفى حال عدم النّوم يبذل المتظاهر بالنّوم أو المتغافل مجهوداً . أمّا الحال الّتى تختارها الجزئيّة الكريمة للآخذ فهى الحال الموافقة للحالة النفسيّة للآخذ ما يُعْطَى إليه . إنّ الآخذ دون ما يستحقّ أو غير ما يستحقّ إنّما يغمض عينيه تغافلاً أو حياءً ، وبقدر إغماض عينيه تفتّح وعيه . إنّ حال الآخذ دون حقّه من إغماض عينيه وتغافله ووعيه الكامل لحقّه يشبه حال الآخذ ما يُعْطَى له زكاةأو صدقة . إنه يغمض عينيه ويتغافل بينما هو كامل الوعى والعلم بأنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل له حقّاً فى مال الغنىّ وبهذا يتبيّن أنّ القول : ﴿ ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه ﴾ قوّةٌ للقول : ﴿ ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون ﴾ لأنّه يؤدّى معناه ويضيف إلى ذلك التّصوير البارع لأعماق نفسيّة المتصدّق عليه المنكسرة انكسار عينيه مع أنّ له حقّاً عند الغنىّ .

لقد تبيّن أنّ الغنىّ إنما ينفق من المال الّذى آتاه الله تعالى إيّاه ، وأنّه محطّ ابتلاء أيشكر أم يكفر ، وأنّ الفقير محطّ ابتلاء أيصبر أم يجزع ، وأنّ المال الّذى يأخذه الفقير إنّما هو مال الله تعالى ، وأنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى سيجازى الغنىّ وفق نيّته وعطائه ، وبهذا يتبيّن أنّ الآية الكريمة تدور حول محورين الأول هو أنّ الله سبحانه وتعالى هو الغنىّ وأنّ الخلائق فقراء إلى الله تعالى ، والثّانى هو أنّ الله سبحانه وتعالى هو المحمود على كلّ حال لأنّ ثواب الشّاكر والصّابر جزيل ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله

---

(١) الحيوان ٣/٣٤٤

بقلبٍ سليم . إنّ هذين المحورين المفهومين ضمناً تبرزهما الجزئيّة الكريمة الأخيرة وينصّ عليهما التّذييل فى الآية الكريمة : ﴿ واعلموا أنّ الله غنيٌّ حميد ﴾ إنّ على عباد الله تعالى أن يتصرّفوا وفق هذا العلم . وهكذا يتبيّن أنّ هذه الجزئيّة الكريمة الأخيرة تفصح عمّا أضمرته الجزئيّتان الكريمتان السّابقتان ، وفى ذلك إضافةٌ جديدة ، وقد مُهِّد لها بإضافةٍ جديدة أخرى هى التّنبيه على قيمة العلم والحثّ عليه .

الآيــة رقــم (٢٦٨)

قال تعالى : ﴿ الشّيطان يَعِدُكُمُ الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرةً منــه وفضلاً ، والله واسعٌ عليم ﴾ .

الشّيطان يعدكم : يخوّفكم[١] والوعد فى كلام العرب إذا أطلق فهو فى الخير ، وإذا قيّد بالموعود ما هو فقد يقدّر بالخير وبالشّرّ كالبشارة . فهذه الآية ممّا يقيّد فيها الوعد بالمعنيين جميعاً . قال ابن عبّاس : فى هذه الآية اثنتان من الله تعالى واثنتان من الشّيطان[٢] .

الفقر : أى بالفقر لئلاّ تنفقوا . فهذه الآية متّصلةٌ بما قبل وأنّ الشيطان له مدخلٌ فى التّثبيط للإنسان عن الإنفاق فى سبيل الله ، وهو مع ذلك يأمر بالفحشاء[٣] .

ويأمركم : أى يغريكم إغراء الآمر[٤]

بالفحشاء : هى المعاصى والإنفاق فيها . وقيل : أى بألاّ تتصدّقوا فتعصوا وتتقاطعوا[٥] وبالبخل ومنع الزّكاة[٦] وترك الصّدقة أو المعاصى مطلقاً أو الزّنا .

---

(١) تفسير القرطبىّ ١١٣٦ والجلالين والبحر المحيط ٣١٩/٢ وتفسير ابن كثير ٣٢١/١

(٢) تفسير القرطبىّ ١١٣٦ وانظر الكشّاف ٢٩٩/١ وتفسير الطّبرىّ ٥٩/٣

(٣) تفسير القرطبىّ ١١٣٦ (٤) البحر المحيط ٣١٩/٢

(٥) تفسير القرطبى ١١٣٦ وانظر تفسير الطّبرىّ ٥٩/٣

(٦) الجــلالين

أقوال[١] ويقول ابن كثير[٢] : « أى مع نهيه إيّاكم عن الإنفاق خشية الإملاق ، يأمركم بالمعاصى والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاّق » روى ابن أبى حاتم والتّرمذىّ والنّسائىّ وابن حيّان عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ للشيّطان لَمَّةً[٣] بابن آدم وللملك لمّة . فأمّا لمّة الشّيطان فإيعادٌ بالشّرّ وتكذيبٌ بالحقّ . وأمّا لمّة الملك فإيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحقّ ، فمن وجد ذلك فليعلم أنّه من الله فليحمد الله . ومن وجد الأخرى فليتعوّذ من الشّيطان ، ثم قرأ : ﴿ الشّيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً ﴾[٤] .

والله يعدكم مغفرةً منه : المغفرة هى السّتر على عباده فى الدّنيا والآخرة[٥] فيغفر لكم ذنوبكم بالصّدقة الّتى تتصدّقون[٦] .

وفضلاً : الفضل هو الرّزق فى الدّنيا والتّوسعة والنّعيم فى الآخرة ، وبكلٍّ قد وعد الله تعالى[٧] يعنى ويعدكم أن يخلف عليكم من صدقتكم فيتفضل عليكم من عطاياه ويسبغ عليكم فى أرزاقكم[٨] وقيل : وفضلاً أن يخلف عليكم أفضل ممّا أنفقتم أو ثواباً عليه فى الآخرة[٩] .

والله واسعٌ عليم : اسمان من أسمائه الحسنى جلّ وعلا[١٠] .

أمرت الآية الكريمة السّابقة الّذين آمنوا بأن ينفقوا من طيّبات ما كسبوا وممّا رزقهم الله تعالى ، وقد بيّن القرآن الكريم فى غير هذا الموضع أنّ المال مال الله تعالى وأنّ ما أنفقه المرء فى سبيل الله تعالى فإنّه جلّ وعلا سيخلفه ، وهذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها

---

(١) البحر المحيط ٣١٩/٢ (٢) تفسير ابن كثير ٣٢١/١

(٣) اللّمّة بفتح اللاّم : الهمّة والخطرة تقع فى القلب .

(٤) تفسير ابن كثير ٣٢١/١ وانظر تفسير القرطبىّ ١١٣٦ والبحر المحيط ٣١٩/٢ وتفسير الطّبرىّ ٥٩/٣

(٥) تفسير القرطبىّ ١١٣٧ (٦) تفسير الطّبرىّ ٥٩/٣

(٧) تفسير القرطبىّ ١١٣٧ (٨) تفسير الطّبرىّ ٥٩/٣

(٩) البحر المحيط ٣١٩/٢ والكشّاف ٢٩٩/١

(١٠) تفسير القرطبىّ ١١٣٧

تعمّق تلك المعانى السّامية النّبيلة وتبيّن عداوة الشّيطان الرّجيم المستمرّة للإنسان الّذى كرّمه ربّه جلّ وعلا . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الشيطان الرّجيم يعدكم أيها المؤمنون الفقر ويخوّفكم به ويحذّركم مغبّة الإنفاق فى سبيل الله تعالى والصّدقة ، بل ويحذّركم مغبّة إيتاء الزّكاة بأنّ الفقر سيكون حليفكم وحاجة النّاس ستكون فى انتظاركم ، وفى الوقت ذاته هو يأمركم بأن تأتوا الفحشاء وكلّ منكر وأن تركبوا كلّ شطط وأن تبعثروا أموالكم وتبذّروها فيما يغضب الله تعالى ويوجب سخطه . وبطبيعة الحال إنّما يجوز فى منطق اللّعين البخل عن فعل الخيرات بل الشّحّ والإنفاق فى المقابل فى فعل المنكرات بل التّبذير فيها من ارتكابٍ للمعاصى وإيتاءٍ للكبائر وفعل كلّ ما يغضب الله تعالى .

وفى مقابل وعد اللّعين الإنسان بالفقر وأمره بأن يأتى الفحشاء يعد الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بالمغفرة وستر الذّنوب والعيوب وبالفضل منه جلّ وعلا فى الدّنيا والآخرة ، وبذلك يكون من الله سبحانه وتعالى شيئان هما المغفرة والفضل فى مقابل الشّيئين من اللّعين الكذوب . وتختم الآية الكريمة بالتّذييل : ﴿ والله واسعٌ عليم ﴾ ونستطيع أن نربط اسم الواسع ، وهو من أسمائه جلّ وعلا الحسنى بالمغفرة ، فالله سبحانه وتعالى واسع المغفرة ، ونستطيع أن نربط اسم العليم ، وهو كذلك من أسمائه جلّ وعلا الحسنى بالفضل ، فالله سبحانه وتعالى هو العليم بمن يستحقّ الفضل منه جلّ وعلا فى الدّنيا بأن يكرمه وينعّمه ويوسّع عليه رزقه وفى الآخرة بأن يدخله الجنّة ويزيده من واسع فضله وقد قال تعالى[1] : ﴿ للّذين أحسنوا الحُسنَى وزيادة ﴾ .

والحقيقة أنّا بحاجةٍ إلى الوقوف مليًّا عند بعض جمل الآية الكريمة وألفاظها فى سبيل تبيّن معانيها الخفيّة ومراميها القصيّة . وأوّل ما يصادفنا جملة يعدكم من القول : ﴿ الشّيطان يعدكم الفقر ﴾ والمعنى أنّ الشّيطان يخوّفكم الفقر لأنّ الوعد مرتبطٌ بمكروه ومقيّدٌ بشرّ . ووراء ذلك نحن نتبيّن فى جملة يعدكم من المعانى ما يتجاوز المدى الّذى تفيده جملة يخوّفكم . وتفسير ذلك أنّه ما دام الحديث عن الشّيطان الرّجيم وما يوسوس به

---

(١) سورة يونس ٢٦

للإنسان فمعنى هذا أنّ ثمّة تخويفاً ضمنيّاً من الشّيطان الرّجيم لمجرّد ذكر اسمه ، خاصّةً وأنّه جاء اسمه فى صدر الآية الكريمة بصريح اللّفظ ، وبذلك يتبيّن أنّ جملة يعدكم تفيد معنى جملة يخوّفكم ببساطة . فإذا أنعمنا النّظر فى جملة يعدكم ذات العلاقة بالوعد استطعنا أن نتبيّن أنّ اللّعين فى أمره الإنسان بالمنكر ونهيه عن المعروف يتخطّى مرحلة التّخويف الضّمنىّ والتّهديد والوعيد المفهومين من فحوى الكلام إلى إظهار نهيه الإنسان عن الإنفاق فى سبيل الله تعالى فى مظهر نهى النّاهى القادر على إنجاز إيعاده وكأنّ شيئاً من الأمور بيد اللّعين بينما الأمور كلّها بيد الله تعالى ، وكأنه عليه لعنة الله تعالى هو الّذى يعطى ويمنع بينما الرّزّاق هو الله تعالى وحده لا شريك له .

وإنّ هذا النّهى الضّمنىّ عن الخيرات الّذى فهمناه من جملة يعدكم يقابله الأمر الصّريح من الشّيطان الرّجيم بالفحشاء . وكأنّ النّهى توطئةٌ للأمر ، وكأنّ التّخلّى مطيّةٌ للتّحلّى فتلك فلسفة الأمر بعد النّهى . وإذا كنّا فهمنا من وعد اللّعين الإنسان المنفق ماله فى سبيل الله تعالى نهياً عن الإنفاق فى الخيرات ، فإنّا نستطيع أن نفهم من الأمر المرمى البعيد الّذى تقصده الآية الكريمة من القول : ﴿ ويأمركم بالفحشاء ﴾ لقد فهمنا من القول : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾ نهياً ضمنيّاً وليس ثمّة نهىٌ مباشر . ويصحّ أن نفهم من القول : ﴿ ويأمركم بالفحشاء ﴾ أنّ ثمّة طاعةً للّعين وامتثالاً لتسويله من الضّخامة والعمق للدّرجة الّتى صحّ معها أن يقال إنّ الشيطان يأمر الإنسان بالفحشاء تعبيراً عن سيطرة اللّعين على فريق من النّاس الّذين ابتعدوا عن منهج السّماء بحيث إنّ أىّ إيحاء من الشيطان ووسوسة وطائفٍ ونَزْغٍ[1] ينزّله وليّه من الإنس منزلة الأمر الّذى يجب أن يمتثل ، وذلك تبعاً لتنزيل الشّيطان الرّجيم صاحبه منزلة الآمر النّاهى . إنّ هذا الفريق من النّاس الّذين أعمى الله تعالى بصائرهم ينزّلون الشّيطان الرّجيم منهم منزلة الآمر النّاهى . لقد نهى اللّعين من ذى قبل وها هو ذا الآن يأمر ، وفى كل مرّةٍ لا يملك ضعاف الإيمان إلاّ الامتثال والخضوع ، الذّلّ والخنوع .

---

(١) النّزغ : التّحريك أدنى حركة .

وإذا كنّا بصدد أمرٍ ونهى وهما متقابلان ، فالعجيب فى الأمر أنّ هذا التقابل فى الصّفات يعكس طبيعة التّقابل فى صفات المأمور به والمنهىّ عنه ، والأعجب من ذلك كلّه أنّ طبيعة كلٍّ من الأمر والنّهى مقلوبة ، فالشّيطان الرّجيم ينهى عن الخيرات فنحن بصدد نهيٍ مقلوبٍ أو معكوسٍ ينبغى أن يحلّ الأمر محلّه ، والشّيطان الرّجيم يأمر بالفحشاء ، فنحن بصدد أمر مقلوبٍ أو معكوس ينبغى أن يحلّ النّهى محلّه . ولكن علينا ألاّ ننسى أنّ الشّيطان الرّجيم ذاته مقلوب النّيّة ومعكوس الطّويّة .

والّذى يجعل جملة يعدكم فى القول : ﴿ الشّيطان يعدكم الفقر ﴾ على بابها إضافةً إلى إفادتها معنى يخوّفكم ، مجىء الجملة ذاتها على بابها فى حقّ الذّات العليّة وذلك فى القول : ﴿ والله يعدكم ﴾ ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾[1] وذلك فى مقابل وعود الشّيطان الرّجيم الكاذبة الخادعة .

وإذا كنّا فهمنا أنّ ترتيب النّهى والأمر على هذا النّحو ترتيبٌ طبيعىّ وإن كان النّهى عن المعروف لأنّه نهىٌ من الشّيطان الرّجيم وإن كان الأمر بالمنكر لأنّه أمرٌ من الشّيطان الرّجيم وسبق أن قلنا إنّ التّخلّى يسبق التّحلّى ، فإنّا نستطيع أن نتبيّن كذلك التّرتيب الطّبيعىّ للشّيئين من الله تعالى : ﴿ والله يعدكم مغفرةً منه وفضلا ﴾ إنّ غَفْرَ الذّنب وستر العيب وهما بمنزلة التّخلّى عن القبيح يسبقان التّحلّى بالمليح وهو الفضل من الله تعالى .

وإذا كانت الصّفة « واسع » تتمشّى أساساً مع الشّىء المتقدّم مثلها فى التّرتيب وهو مغفرة الذّنب ، فالله سبحانه وتعالى واسع المغفرة وقد قال عزّ من قائل[2] : ﴿ إنّ ربّك واسع المغفرة ﴾ وبناءً على ذلك تتمشى الصّفة المتأخرة ذكراً « عليم » مع الشّىء الثّانى المتأخر ذكراً هو الآخر وهو الفضل من الله تعالى ، فإنّ الصّفة « واسع » وراء ذلك يصحّ أن تشمل الشّيئين معاً من الله تعالى ، فالله واسع المغفرة والله واسع الفضل . كما أنّ الصّفة الأخرى : « عليم » يصحّ هى الأخرى أن تشمل الشّيئين معاً فالله سبحانه وتعالى عليمٌ بمن يستحقّ أن يغفر جلّ وعلا له ومن يستحقّ أنّ يتفضّل تعالى عليه بناءً على نيّته

---

(١) سورة التوبة ١١١ (٢) سورة النّجم ٣٢

وعمله . إنّ اللّفّ والنّشر ممكنان ، ويصحّ أن يكون النّشر هو الأولى وبذلك يقابل الواسعُ المغفرة وهما متقدّمان ، ويقابل العليمُ الفَضْلَ وقد جاءا متأخرين .

الآيــة رقــم (٢٦٩)

قال تعالى : ﴿ يؤتِى الحكمة من يشاء ومن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكّر إلاّ أولو الألباب ﴾ .

يؤتى : يُعْطى[١] .

الحكمة : إصابة الحقّ بالعلم والعقل ، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام ، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات ، وهذا هو الّذى وُصِف به لُقْمانُ فى قوله عزّ وجلّ : ولقد آتينا لقمان الحكمة ، ونبّه على جملتها بما وصفه بها[٢] عن ابن عبّاس فى قوله : ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، يعنى المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدّمه ومؤخّره وحلاله وحرامه وأمثاله[٣] وعن قتادة قال : الحكمة القرآن والفقه فى القرآن[٤] وعن مجاهد قال : الحكمة القرآن والعلم والفقه[٥] وقال آخرون هو العلم بالدّين[٦] قال ابن زيد : الحكمة العقل فى الدّين[٧] وقال آخرون : الحكمة الفهم[٨] وقال الطّبرىّ[٩] : « يعنى بذلك جلّ ثناؤه يؤتى الله الإصابة فى القول والفعل من يشاء من عباده » وقال مالك بن أنس : الحكمة المعرفة بدين الله والفقه فيه والاتّباع له . وروى عنه ابن القاسم أنّه قال : الحكمة التّفكّر فى أمر الله والاتّباع له وقال أيضاً : الحكمة طاعة الله والفقه فى الدّين والعمل به[١٠] وأصل الحكمة ما يمتنع به من السَّفه ، فقيل للعلم حكمة ، لأنّه يمتنع به ، وبه

---

(١) تفسير القرطبىّ ١١٣٨
(٢) مفردات الرّاغب ١٢٧
(٣) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٠
(٤) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٠
(٥) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٠
(٦) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٠
(٧) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٠
(٨) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٠
(٩) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٠
(١٠) تفسير القرطبىّ ١١٣٨

يعلم الامتناع من السّفه ، وهو كلّ فعلٍ قبيح ، وكذا القرآن والعقل والفهم . وفى البخارىّ : من يُرِدِ الله به خيراً يفقّهه فى الدّين . وقال هنا : ﴿ ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾[١] وفى الجلالين : « الحكمة أى العلم النّافع المؤدى إلى العمل » . وكرّر ذكر الحكمة و لم يضمرها اعتناءً بها وتنبيهاً على شرفها وفضلها[٢] ويقال : إنّ من أعطى الحكمة والقرآن فقد أعطى أفضل ما أعطى من جمع علم كتب الأوّلين من الصّحف وغيرها ، لأنّه قال لأولئك : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً ﴾ . وسمّى هذا خيراً كثيراً ، لأنّ هذا هو جوامع الكلم[٣] وجاء فى بعض الأحاديث : من حفظ القرآن فقد أدرجت النّبوّة بين كتفيه غير أنّه لا يوحى إليه[٤] وقال بعض الحكماء : من أُعطِى العلم والقرآن ينبغى أن يعرف نفسه ، ولا يتواضع لأهل الدّنيا لأجل دنياهم ، فإنّما أعطى أفضل ما أُعطى أصحاب الدّنيا ، لأنّ الله تعالى سمّى الدّنيا متاعاً قليلاً فقال : ﴿ قل متاع الدّنيا قليل ﴾ . وسمّى العلم والقرآن خيراً كثيراً . وقرأ الجمهور : ومن يُؤت على بناء الفعل للمفعول[٥] وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا حسد إلاّ فى اثنتين ، رجلٌ آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته فى الحقّ . ورجلٌ آتاه الله حكمةً فهو يقضى بها ويعلّمها ، وهكذا رواه البخارىّ ومسلم والنّسائى وابن ماجة من طرقٍ متعدّدة[٦] .

فقد أوتى خيراً كثيراً : تنكير تعظيم ، كأنّه قال : فقد أوتى أىّ خيرٍ كثير[٧] .

وما يذّكّر : أصله يتذكّر فأدغم التّاء فى الذّال[٨] .

إلاّ أولو الألباب : أصحاب العقول[٩] الّذين عقلوا عن الله عزّ وجلّ أمره ونهيه ، فأخبر جلّ ثناؤه أنّ المواعظ غير نافعةٍ إلاّ أولى الحجا والحلوم وأنّ الذّكرى غير ناهيةٍ

---

(١) تفسير القرطبىّ ١١٣٨

(٢) تفسير القرطبىّ ١١٣٨ والبحر المحيط ٣٢١/٢

(٣) تفسير القرطبى ١١٣٨

(٤) تفسير ابن كثير ٣٢٢/١

(٥) تفسير القرطبىّ ١١٣٩

(٦) تفسير ابن كثير ٣٢٢/١

(٧) الكشّاف ٣٠٠/١

(٨) البحر المحيط ٣٢١/٢ والجلالين

(٩) الجلالين

إلاّ أهل النّهى والعقول[١] .

بعد أن عُنِى السّياق بأصل المال ووجوب كونه طيّباً كى ينفق منه فى سبيل الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى طيّبٌ لا يقبل إلا طيّباً ، حذّر من اتّباع خطوات الشّيطان الّذى يعد المنفق بالفقر ويأمره بالفحشاء ، وحثّ على اتّباع أوامر الله تعالى ومنها ما يتعلّق بالإنفاق فى سبيله جلّ وعلا وما يترتّب عليه من وعدٍ للحقّ جلّ وعلا بالمغفرة والفضل . إنّ واجب الإنسان الّذى أكرمه الله تعالى بنعمة العقل أن يستمع القول وأن يتّبع أحسنه ، ومن أحسن من الله حديثاً ، ومن أحسن من الله قيلا ؟ إنّ واجب الإنسان أن يعى ما يقال ، وأنّ يحكّم فيه عقله ، وأنّ يُعْنى بالعلم النّافع ، وأن يستعين الله سبحانه وتعالى كى يكون فهمه صحيحاً ، وتقديره سليماً ، وحكمه صائباً ، وتصّرفه حكيماً ، وعمله صالحاً مقبولاً . وإنّما يكون العمل صالحاً إذا كان موافقاً لتعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين ، وإنّما يكون مقبولاً إذا أريد به وجه الرّب جل وعلا . إنّ مجموع هذه الصفات الّتى تعطّرها خشية الله تعالى هى الحكمة الّتى يؤتيها الله سبحانه وتعالى من يشاء من عباده : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ﴾ فإيتاء الله سبحانه وتعالى الحكمة ذو علاقةٍ بالعلم اللّدنّىّ الّذى يتفضّل الله سبحانه وتعالى بإيتائه من يشاء من عباده ، وذلك على غرار إيتائه جلّ وعلا هذا العلم اللّدنّىّ عبده الصّالح الّذى جاءت الإشارة إليه فى قوله تعالى من سورة الكهف[٢] : ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلّمناه من لدنّا علما ﴾ .

ومن الميادين الّتى تتجلّى فيها الحكمة الّتى يؤتيها الله سبحانه وتعالى من يشاء من عباده ميدان المال ، كسبه ومعالجته وإنفاقه . والّذى يلفت الانتباه حقّاً حديث الآية الكريمة عن الحكمة بمعنى الفقه فى دين الله تعالى والعمل بموجب ذلك الفقه ، فى أعماق الحديث عن المال وطرائق كسبه وإنفاقه . ويفهم من ذلك أنّ الإسلام دينٌ ودنيا ، وأنّ المال ، وهو أحد شقّى زينة هذه الحياة الدّنيا ، حينما يعالج بحكمة ، يكون قوّةً للمرء فى مجال

---

(١) تفسير الطّبرى ٣/٦١ (٢) الآية ٦٥

دينه وآخرته وقد فهمنا من الآيات الكريمة والأحاديث الشّريفة ثواب الإنفاق فى سبيل الله تعالى . وبهذا يتبيّن أنّ مجال الحكمة متّسع كى يشمل كلّ مناحى الحياة بما فى ذلك المال .

وتقرّر الآية الكريمة فى جزئيتها الثّانية : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾ أنّ من يؤتيه الله سبحانه وتعالى الحكمة فضلاً منه تعالى ومنّة ، فقد آتاه الله تعالى خيراً كثيراً . وانظر إلى اتساع مدى الخير من مجئ لفظة « خيراً » منكّرة . وقد قوّت الصّفة ﴿ كثيراً ﴾ من طبيعة هذا الخير ونعوته . وإنّه بالنّظر إلى جانب الحكمة بشأن المال مثلاً يتبيّن أنّه صحّة طرائق الحصول عليه ، فينبغى أن تكون من حلّ ، وسلامة معالجته ، وحسن إنفاقه وذلك وفق إرشادات الشّارع الحكيم ، فى ضوء هذه النّظرة يتبيّن أنّ الحكمة هى الجوهر وأنّ المال هو العَرَض ، وإنّما اكتسب المال مكانته الحميدة لتلبّسه بالحكمة على النّحو الّذى تبيّنّا ، بمعنى أنّ المال يفقد نعوته حينما تتخلّى عنه الحكمة فى جمعه وإنفاقه . إنّه إن كان حراماً مصدره فإنّه نارٌ يأكلها فى بطنه آخذه بغير وجه حقّ وآكله بالباطل ، وإن كان حراماً وجه إنفاقه ، كان وبالاً على صاحبه الّذى قعد خاسئاً حسيراً .

إنّ الحكمة هبةٌ من الله تعالى لبعض عباده ، وإنّ الجزئيّة الأخيرة فى الآية الكريمة : ﴿ وما يذّكر إلاّ أولو الألباب ﴾ تأخذ بسبب من قوله تعالى[1] : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ بمعنى أنّ من آتاه الله سبحانه وتعالى عقلاً حصيفاً ، وفكراً نيّراً ، يستمع القول فيتّبع أحسنه ، ومن ذلك توجيهات القرآن الكريم تجاه المال وطرائق معالجته ، ويكون من هذا المستمع المتّبع نيّةٌ حسنة وجهادٌ فى الله سبحانه وتعالى ، ويكون فى المقابل بفضلٍ من الله وتعالى ومنّ عونٌ منه جلّ وعلا وهدايةٌ إلى سبل السّلام ودوام توفيق ، وذلك كلّه عين الحكمة الّتى يتفضّل جلّ وعلا بإيتائها من جاهد فى سبيله جلّ وعلا .

وإذا كنّا تبيّنّا فى صدر الآية الكريمة وفى متنها أو وسطها بسبب ذكرالحكمة فى

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩

الموضعين أنّ ثمّة تمازجاً بين عاطفة الرّغبة فى المال وحكمة معالجته جمعاً وصرفاً ، فإنّا نتبيّن فى الجزئية الكريمة الأخيرة أو عجز الآية تمازجاً بين العاطفة والحكمة كذلك ، تناغماً بين التّذكّر وهو ثمرة الموعظة الّتى محلّها القلب ، وبين العقل الّذى يتأمّل ويتدبّر ويتفكّر ويتذكّر ، ويكون ثمرة ذلك كلّه الحكمة الّتى تتجلّى فى قول الّتى هى أحسن وعمل الّذى هو أجمل وكيف لا تكون الحكمة ثمرة التّناغم بين القلب السليم والفكر المستقيم وإنّ الآية الكريمة تستعمل لفظة الألباب ، جمع لبّ ، ولبّ كلّ شيءٍ خالِصُه وما ينتقى منه(١) وكأنّنا الآن أمام عقلٍ خالصٍ منتقى ، وأمام شخصٍ لبيب ، أكرمه الله سبحانه وتعالى بهذا النّوع المتميّز من العقول الّتى استعملت بفضل الله تعالى استعمالاً صحيحاً .

الآيــة رقــم (٢٧٠)

قال تعالى : ﴿ وما أنفقتم من نفقةٍ أو نذرتم من نذرٍ فإنّ الله يعلمه ، وما للظّالمين من أنصار ﴾ .

وما أنفقتم من نفقةٍ أو نذرتم من نذر : ظاهره العموم فى كلّ صدقةٍ فى سبيل الله أو فى سبيل الشّيطان ، وكذلك النّذر عامٌّ فى طاعة الله أو معصيته(٢) والنّذر هو ما أوجبه المكلّف على نفسه من العبادات ممّا لو لم يوجبه لم يلزمه ، تقول : نذر الرّجل كذا إذا التزم فعله ينذُر (بضم الذّال) وينذِر (بكسرها)(٣) وفى قوله : من نذر ، دلالةٌ على حذف موصولٍ قبل قوله نذرتم تقديره : أو ما نذرتم من نذر . لأنّ مِنْ نذر تفسيرٌ وتوضيحٌ لذلك المحذوف . وحذف ذلك للعلم به ولدلالة ما فى قوله : وما أنفقتم ، عليه ، كما حذف ذلك فى قوله :

أمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصــره ســـواء

---

(١) معجم مقاييس اللّغة : « لبّ » ٥/٢٠٠

(٢) البحر المحيط ٢/٣٢٢ وانظر الكشّاف ١/٣٠٠ وتفسير الطّبرىّ ٣/٦١

(٣) تفسير القرطبىّ ١١٤٠ وانظر البحر المحيط ٢/٣١٥ وتفسير الطّبرىّ ٣/٦١